عبدالله شروح

سُوار النّبي

رواية

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

عبدالله شروح
سُوار النّبى

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة – ش الشيخ معروف من شمبليون – عمارة ج- وسط البلد
تلفون: 20225743534+
البريد الإلكتروني : arweqhhhh@gmail.com

رقم الإيداع: 2019/2173
الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-774-437-8

الطبعة الأولى
2019

عبدالله شـروح

سُـوار الـنّبـي

روايـة

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

محتوى هذا الكتاب يعبر عن رأي المؤلف وتوجهه

الفصل الأوّل
القصر

1

"أحقّاً هذا هو؟!"، ردّدت في نفسي وشعور ممضّ بالخيبة يغشاني، وأنا أجوس بعينيّ، للمرّة الأولى، تفاصيل القصر الجمهوريّ بمأرب. وكنت مضيتُ إليه، بعد ظهيرة ذلك اليوم، منتفخاً بامتيازاتٍ توهّمتُني سأحوزها من عملي فيه كفردٍ ضمن وحدةٍ عسكريّةٍ كان مجرّد سماعي لاسمها يملؤني بشعور الأهميّة والسُّلطة، رغم إدراكي بأنني سأكون بأدنى هرمها الإداريّ!

فبعد أن ترجّلت عن الباص الّذي أقلّني، على نحوٍ خاصٍّ، من وسط المدينة (تحديداً من أمام فندق الفخامة بشارع 26) إلى بداية الدّرب الفرعيّ القصير المؤدّي للقصر، استقبلتني نقطة أمنيّة لم تستَبقِني فيها طويلاً. اكتفى الجنديّ القائم عليها بالنظر إليّ من أعلى إلى أسفل_ وهو يطلق زفرة الضائق ذرعاً_ ثمّ تنحّى، فتابعت المسير.

كانت الشّمس، آنئذٍ، في ذروة شراستها. تسحق بثقل حرارتها كلّ شيء تحتها دونما هوادة، كأنّما عازمة على إذابته. وأخذ الحرّ يصهد جسدي ويكسّر الصورة أمامي بتموّجات الأبخرة المتصاعدة من الأسفلت وضفافه.

وكانت البوّابة الرئيسيّة للقصر محجوبة بسورٍ ثانويّ مُستحدثٍ تلوح عليه ما يمكن اعتبارها بوّابة خارجيّة، استوقفني رجل أمنها ما أن دنوتُ. كان واقفاً خلف ماسورة حديديّة تمتدّ أفقيّاً بين كتلتين

خرسانيّتين قابعتين على جانبيها. سألني إلى أين؟ فأجبتُ إلى القصر. سألني لماذا؟ فأجبته بأني جنديّ آتٍ للعمل هنا. وبرباطة جأشٍ مُصطنعة، زوّدته باسم الوحدة العسكريّة الّتي أخبرته أنّها استقدمتني. ابتسم، وأزاح الماسورة عن طريقي. ثمّ أمرني، بلياقة، بالتوجّه لضابط الأمن. هو ذاك، قال لي، مشيراً إليه.

كان جالساً في مأوىً خشبيٍّ يُذكّر بأكشاك بيع الصّحف، مزروعٍ لصق السور الرئيسي. ولفيف من الجنود يجولون، تحت إمرته، بالمساحة الممتدّة بين البوّابتين.

وباللّحظة الّتي هممت فيها بالتقدّم نحوه، نطّ كلب أسود وضخم باتّجاهي. برز هكذا فجأةً من خلف إحدى الكتل الخرسانيّة، في هوهوة مدوية حمّلها من الوعيد ما كان كافياً لتتخشّب حنجرتي. وعلى نحو لا إراديّ انفتلتُ للوراء، نحو الجنديّ. وصرخت، متشبثاً بكمّه: انتبه! فصرخ هو الآخر بالكلب، مهدداً إيّاه بعقب بندقيّته: ابتعد يا "بارود"! وعلى الفور خبا تنمُّر هذا البارود وعاد لمكمنه في عواء جروٍ ذليل.

وبالانكسار نفسه، تقريباً، سحّبت قدميّ باتّجاه ضابط الأمن. وكانت ابتسامات الجنود وضحكاتهم المكتومة عكست لي كم أنّ ردّة فعلي الرّاجفة إزاء هجوم بارود قد عرّتني من الشجاعة. وفكّرت أنّهم سينظرون إليّ منذ الآن كرعديد ليس لائقاً بكونه جنديّاً في جيشٍ خلقته الحرب ليكون وقودها.

وحين وقفت أمامه، وكان المرء يستطيع، من النظرة الأولى لملامحه، أن يتبيّن جديّته المفرطة واعتداده بذاته، زادتني تقاسيم وجهه

المتحجّرة ارتباكاً. تطلّع إليّ برهةً، ثمّ أطرق يُقلّب مجموعة من الورق بين يديه، بينما يمرر لي الأسئلة. الأسئلة ذاتها الّتي كنت أتوقعها تماماً ويتوقّعها، بيسرٍ، أيّ شخص كان ليقف تلك اللّحظة بمكاني. ومع ذلك، كانت نظرته الحادّة المفاجئة، الّتي مضى يرشقني بها بين فينة وأخرى، تفاقم ارتباكي. إلى حدٍّ غدت فيه بعض تلك الأسئلة عصيّة على الإجابات.

لكنّه ما لبث أن اختتم هذا الاستجواب الثقيل بأن تناول، من حزامه، جهاز المناداة خاصّته، وخابر الوحدة العسكريّة الّتي حدّثته بأنّي آتٍ بناءً على طلبها.

وجاءنا، من الطّرف الآخر، صوت معاذ، مؤكّداً صحّة إجاباتي، ومبلّغاً بأنّه سيخرج، في الحال، لاصطحابي. ولم أكن أعرف عنه، لتلك اللّحظة، سوى صوته. كانت علاقتي به مقصورة على اتصالٍ هاتفيٍّ أجريته معه قبل نحو ساعة.

ولم تمضِ دقيقتان إلّا وهو ماثل أمامنا. وعلى غير ما كنت أتوقّع، وجدته يماثلني عمراً. كان ذلك بيّناً رغم استرسال لحيته، الأمر الّذي كان لا بدّ وأن يوحي لي بأنّه يكبرني سنّاً ولو بقليل. وكان مؤتزراً معوزاً ومتخصّراً مسدساً أمريكيّاً من طراز "كلوك" ومرتدياً قميصاً داكناً قصير الأكمام. ويكشط بسواكه الضّخم أسناناً ناصعة البياض.

صافحني في حبور ثمّ سألني عن "البطل نشوان" لماذا لم يأتِ معي أيضاً. أجبته، وأنا أحدّق في النّدبة الممتدّة من الزاوية اليمنى لجبينه إلى التقاء حاجبيه، بأنّه اضطرّ صباحاً للذّهاب إلى الجبهة، وأنّه حمّلني

إليه سلامه وتحاياه. رحّب بي مرّة أخرى ودعاني للدّخول، فمضيت معه، مُجيلاً نواظري في الأنحاء، أستبين ما أستطيع من التفاصيل.

أمامنا مباشرةً المبنى الرئيسيّ، حيث يقطن رئيس هيئة الأركان وأعضاء مكتبه. أمام بوّابته مجموعة من أفراد الحراسة، موزّعين هكذا كيفما اتفق. بعضهم يرتدي ملابس مختلطة، مدنيّة وعسكريّة في آنٍ معاً. وكان نفر من الرّجال ذوي السّمت القبليّ خارجين بتلك اللحظة وعلى وجوههم تعابير متناقضة. بعضهم يبدو عليه الرّضا والبعض الآخر يبدو عليه السخط. وثمّة حوالي عشرة أطقم عسكريّة مبثوثة على ضفاف الدّرب الإسفلتيّ المؤدّي للمبنى.

تحيط بهذا المبنى مساحة شاسعة بعض الشيء، مقسّمة، بدروب إسفلتية ضيّقة، لمساحاتٍ متوسطة يبدو أنّها كانت، يوماً ما، قبل الحرب، خضراء. أمّا الآن فجرداء قاحلة، وملأى بقشٍّ مُغبرٍّ لآثار ما كانت حشائش وأشجاراً. فقط عدد من النّخيلات ما زالت منتصبة هنا وهناك في حالٍ مزرية من الّلا اهتمام. وتنتصب بتلك المساحات، أيضاً، وعلى جنباتها، أوتاد معدنيّة رفيعة، كان الغرض منها حمل لمبات الإضاءة، اللمبات الّتي غدت أغلب الأوتاد عارية منها، ما أفاض على المشهد تشوّهاً لا يطاق.

تملّكتني الكآبة وانطفأ آخر قبس من الحماس الّذي كنت أشتعل به منذ البارحة. نفخت زفيراً طويلاً من الضّجر، بينما يشير لي معاذ بالانعطاف يميناً. نحو مجموعة من المباني الموزّعة، بانتظام، في محيط السّاحة، بشكلٍ محاذٍ للسور الّذي نقشت عليه شظايا القذائف، بأكثر

من موضعٍ، نقوشاً عنيفة ومبهمة. تلك المباني الّتي أُنشئت في الأصل كملحقات لسكن أفراد الحراسة ولاستيعاب أكبر كمٍّ من الزوّار في ظروف معيّنة، وأضحت، الآن، مقرّات لعدد من الدّوائر العسكريّة.

ابتسمت بتقزّزٍ ومضيت معه. وتعثّرت، أكثر من مرّة، بحُفَرٍ متباينة الحجم خلّفتها قذائف الهاون الّتي أهطلها الحوثيّون على القصر حينما كان بمتناول ترسانتهم، إبّان حصارهم للمدينة.

"من هنا" نبس معاذ مبتسماً، يدعوني لارتقاء عدد من الدّرج المؤدّية لمدخل المبنى الّذي غدونا قبالته.

أوّل ما ظهر لي، في دخولي المبنى، السُلّم المؤدّي للطّابق العلوي (المبنى من طابقين)، بمجموعة الفُرُش والأغطية المبعثرة تحته لنائمين صحوا ربّما لظرف طارئٍ دون أن يجدوا الوقت الكافي لإعادة ترتيب المكان. وكان يمتدّ على يميننا رواق، وعلى يسارنا آخر. تتجاور على ضفّتيهما مجموعة غرفٍ أبوابها المتقابلة مفغورة على مجاميع من الجنود المستغرقين في مضغ القات وتحليل الوضع العامّ للبلد.

وكانت الرائحة النّتنة للجزمات العسكريّة، المبعثرة في الأرضيّة، أوّل المستقبلين. ووقفت هنيهةً قبل أن يشير لي معاذ، بالابتسامة الصّافية ذاتها، للمضيّ يساراً، ويتقدّمني.

اجتزنا ثلاثة أبواب. ومع وصولنا الباب الرّابع، كانت الرّائحة الفتّاكة تلك، بالإضافة لتأثير الحرّ الّذي تفاقم داخل المبنى عمّا كان عليه خارجه، وما حمَّلَته أسئلة ضابط الأمن من عبءٍ على أعصابي، وقبلها حادثة بارود؛ كلّ ذلك دفعني للشّعور بالغثيان. تكاثفت حاجتي

للتقيّؤ ولم أستطع المقاومة. سألت معاذًا، بنبرة استعجال، عن دورة المياه. لم أكن أعرف أنّا صِرنا إزاء الغرفة المقصودة. نظر إليّ بقلق، وأشار لآخر بابين متقابلين، في نهاية الرواق.

هناك، أفرغت معدتي لجوف إحدى المغاسل. ثمّ غسلت وجهي ونشّفته بطرف سُترتي. وابتسمت حين لاحت لي، في المرآة أمامي، جملة مكتوبة، بخط رديء، على باب أحد الحمّامات: لا تنسَ، قبل خروجك، أن تنظّف قذارتك جيّداً، أيّها المحترم. بدت لي صفة محترم في هذا السّياق أشبه بشتيمة مقذعة.

وحين خرجت، أخجلني أنّ معاذاً كان ما يزال بانتظاري حيث تركته. تلقّفني مبتسماً، ودخلنا معاً. ولدى دخولنا وقف الجميع بحركة آليّة، فتبيّن لي أنّه أعلاهم رُتبة. وقبل أن يأذن لهم بالجلوس، أخذ يعرّفهم إليّ.

أسفل الغرفة، مجاوراً لمكان وقوفنا، ثمّة مكتب حديديّ رثّ ينوء بعدد من دفاتر السجلّات. يقف خلفه رجل خمّنت، من غلبة اللّون الأبيض على الأسود في لحيته الكثيفة والقصيرة، أنّه خمسينيّ. يعتمر عِمّة بسيطة لم تتمكن من إخفاء شساعة جبهته الواقفة على حاجبين كثّين تلتمع تحتهما عينان صغيرتان تومضان ببريقٍ غامضٍ يوحي بحزنٍ جليلٍ تدافعه كبرياء عنيدة. يرتدي ثوباً غامق اللّون بسيطاً. ويتحزّم جنبيةً يبدو عليها أثر السنين الطّوال. قدّمه لي معاذ قائلاً: قحطان، المسؤول عن الأرشيف وسجلّات القيد.

أمّا الجهتان: اليمنى (على جدارها نافذتان استعيض عن بعض زجاجها بورق مقوّى) والعلويّة من الغرفة، فمؤثّثتان بفُرُش سميكة ترتَّبت فوقها عدد من الأرائك والوسائد المبقّعة بالوسخ. تمتدّ أمامها طاولة معدنيّة واطئة، مشكّلةً زاويةً قائمةً. يرسو فوق الجزء العلويّ منها عدد من الهواتف الثّابتة. ويربض فوق جزئها الممتد في الجانب الأيمن _الّذي يقف خلفه مراهق سمين يرتدي بزّة عسكريّة ضائقة به حتّى لتكاد تتمزّق _ ثلاثة أجهزة سوداء متماثلة، تقارب في حجمها وشكلها تلك الهواتف الثّابتة. وقدّم لي معاذ مراهقنا الضّخم هذا بأنّه الجنديّ عبداللّطيف، مختصّ محطّات اللا سلكي. ثمّ استتبع، مبتسماً: "وهو، أيضاً، أخو الفندم".

وعلى يسار الغرفة مكتبان خشبيّان بسيطان، متجاوران ومتماثلان. أعلاهما عليه حاسوب قديم وطابعة صغيرة. يقف خلفه شاب شديد الوسامة. أبيض البشرة. أزرق العينين. وذو أنف موفور الانتصابة ينحدر من جبهة عريضة وناصعة إلى تخوم شفتين داميتين. وشعره أشقر اللّون متموّج. "وهذا الطبّاع زين العابدين"، قال معاذ مشيراً إليه.

ثمّ قدّم لي الأخير، الواقف خلف المكتب الملاصق لمكتب زين العابدين، أدنى منه وعلى بعد إنشات فقط منّا: "أمّا هذا فشاعرنا الجميل شادي". وهنا ارتسمت على وجوه الجميع ابتسامة ملتبسة، قبل أن يستتلي: "وهو مختصّ الفاكس". وبدت على شادي، الذي كان، على خلافهم جميعاً، حلّيق اللّحية، سيما الانزعاج والتأفّف، قبل أن

ينصرف كليّةً لتفحّص هاتفه الّذي كان لحظتها بين يديه. وقد بدا لي، من شدّة نحافته، أقرب لعصاً طَفَت عليها بعض الملابس. أمّا ملامحه الحادّة، فتنبئ عن سرعة انفعال وتأثّر. ودهمني، لوهلة، فضولٌ لمعرفة ما يستمع إليه خلال سمّاعة هاتفه المغروسة حينها في أذنيه.

وأخيراً نالوا الإذن بالجلوس، فجلسوا مرحّبين بي بفتور. واتّجهت، بدوري، لجانب معاذ الّذي انغرس في الزاوية العلويّة اليمنى من الغرفة، متّكئاً على أريكته، يرتصّ أمامه_ إلى جانب أجهزة الهواتف _ عدد من الملفّات، ونحو ثلاث كرّاسات من تلك المخصّصة لكتابة الملاحظات.

وكان أوّل ما استرعى انتباهي في جلوسي، حركة المروحة المتهالكة، الّتي تتوسّط السّقف ولا تكاد تضفي على الجوّ أدنى لطافة. تسبّب عطبٌ ما بجعلها تدور بهذه الطريقة. مع كلّ دورة لها، وفي موضعٍ محدّد، تترنّح موحيةً للنّاظر بأنّها ستسقط فوراً على رأسه.

وفكّرت كم أنّ هذه المروحة تشبهنا، نحن الّذين نملأ حياتنا ضجيجاً وحركة، دون أن نلتفت يوماً لنرى ما إذا كان لضجيجنا معنىً، وهل حركتنا مجدية أم لا تعدو كونها دوراناً مُختلّاً حول نقطةٍ ربّما هي في الأصل خارج النّص!

وأكثر ما استغربته وشقّ عليّ، آنئذٍ، ما رأيت من استغراق الجميع، باستثناء معاذ، في عوالمهم الدّاخلية. كلّ منهم هامد في مكتبه كأنّما على جزيرة معزولة. رغم أنّهم يمضغون القات وبداية مقيلهم، حيث الطبيعيّ أن يميلوا ليتشاركوا مكنوناتهم حتّى السّخيفة منها.

"سيكون العمل مع هذا الفريق مملّاً وصعباً" قلتُ في نفسي. وكمحاولة ساذجة للاسترخاء، ألقيت برأسي للوراء، لحافّة المسند، ممعناً في تحديقي بالمروحة، وماضغاً ذلك الشّعور الحامز من التحفّز الأبله الّذي يعانيه المرء في البدايات الجديدة.

وقد دأب معاذ على اختراع حديثٍ ما معي، إثر كلّ اتصال هاتفيّ ينهيه (وكانت وتيرة الاتصالات آخذة في التصاعد). يحاول تبديد شعوري بالغربة. وتساءلت عن تفاصيل علاقته بنشوان، هذه العلاقة الّتي استنتجت متانتها من الطّريقة الودودة الّتي يعاملني بها، ضدّاً لما يفرضه النّظام العسكريّ من تجنّب كلّ ما من شأنه تذويب الحدود بين ذوي الرُّتب المتفاوتة.

"إن أوّل ما يتوجّب عليكم نسيانه، منذ انخراطكم في العسكريّة، هو التعامل العاطفيّ الّذي اعتدتموه بحياتكم المدنيّة. لقد جئتم إلى هنا لنصوغكم أسوداً، ذئاباً، وحوشاً. لا مجال هنا للتعاملات النّاعمة"، تذكّرت هذه الكلمات الّتي ألقاها على جمع غفير منّا، نحن الوافدين الجدد، ضابط كبير الرّتبة زار معسكرنا ببداية التحاقنا بالجيش. وقد وجدت هذه القناعات، حينذاك، بعد قليلٍ من التفكير، صائبة. فطالما والجنديّ إنّما يهيّء نفسه، بالنّهاية، للحظةٍ يضطرّ فيها لأن يقتُل كي لا يموت، فلا مندوحة إذاً عن المضيّ بعملية الاستذئاب هذه، ما لم تتجاوز حدّها المعقول.

وفجأةً، تنحنح شادي، وعيناه ملصوقتان بشاشة هاتفه، قاطعاً استرسالي في الذّكريات. ليقول، بأسىً: "يا إلهي! أربعة وخمسون

شهيداً، وضعف العدد من الجرحى. إنّها كارثة، كارثة مروّعة. ومرّت هكذا بكلّ سهولة. لا مساءلة ولا جزاءات. اكتفوا بتوصيفها ضربة خاطئة وحسب!".

لأتذكّر أني كنت، قبل يومين، قد سمعت عن هذه الضربة التي تعرضت لها إحدى الكتائب في صرواح، والتي جاءت الأخبار المبدئيّة بشأنها أنها من صاروخيّة الانقلاب، قبل أن تستقرّ على أنّها ضربة خاطئة من طيران التحالف.

تنهّد معاذ، مُعلّقاً: "رحم الله الشهداء، ونسأله شفاءً عاجلاً للجرحى". "فقط؟! هكذا وبكلّ بساطة؟! الرحمة للشهداءِ والشفاء للجرحى؟! يا رجل!" اعترض شادي. "ماذا تريد أن نقول إذاً، حضرة الشاعر؟!" تهكّم عبداللطيف. "لا أنتظر منك أن تقول شيئاً أيّها البدين. أنا فقط أستغرب هذا التعاطي البارد إزاء مجازر التحالف في حقّنا، والتي بات عدد ضحاياها يقترب من ضحايا معاركنا مع الانقلاب. ماذا يُبقي هذا التحالف لنفسه من جدوى طالما والنتيجة ذاتها: موتنا؟!". "أشاركك هذا القلق يا عزيزي. لكن الأمور ليست بهذه البساطة. دخول التحالف بهذه المعركة كان مكسباً كبيراً، لا يمكننا إنكار ذلك. ولولاه لكان وضعنا الآن أكثر سوءاً. على الأقلّ، أضحت لنا جغرافيا محررة، ننطلق منها لتحرير ما بقي. وبالنّهاية، هذه حرب. طبيعيّ أن يكتنفها الكثير من الأخطاء. ولتعرف ما أعنيه، دعني أسألك: ماذا لو أعلنت الشرعيّة الآن استغناءها عن التحالف، كردّة فعل على أخطائه؟ هل سيغدو الوضع أفضل؟" قال قحطان، ماضغاً

سيجارته. "المؤسف يا عزيزي أنّكم تتعاطون مع هذه الدول كما لو أنّها جمعيّات خيريّة. وكأنّها ما اجتمعت إلّا من أجل عيوننا، رأفةً بنا، وانطلاقاً من واجب الأخوّة القوميّة والإنسانيّة. إنّها دول يا سادة، دول. تحرّكها المصالح، لا العواطف. وأظنّ بات من الضروريّ، وفقاً لكثافة الأخطاء الحاصلة، التوقّف للتساؤل عن نواياها الحقيقيّة" انفعل شادي.

"كفى!"، صرخ معاذ، صافعاً الطاولة بكفّه، "فليؤدّ كلّ منكم عمله، دونما تفلسف. نحن جنود هنا. من يجد في نفسه ميلاً لغير ذلك، فليس هذا مكانه. أطفئ سيجارتك يا قحطان، لسنا في لوكندة. وأنت يا شادي، كفّ عن ثرثرتك والتزم عملك" ليعودوا لصمتهم مرّة أخرى.

ويلتفت، من ثمّ، إليّ، وقد عادت ملامحه لانبساطها: "لا شكّ طبعاً، طالما وأنت صديق مقرّب من نشوان، أنّك مولعٌ بالقات!" وبدأ يضرب رقماً على أحد الهواتف. ابتسمت، بينما مضى يؤنّب الواقف على الطرف الآخر من السمّاعة: "لماذا تأخّرت يا صابر؟ أخبرتك أنّ لدينا ضيفًا. حسناً. فلتسرع".

"ليس من داعٍ لذلك" قلت له، قبل أن تطير إليّ، من قحطان، حزمة صغيرة من القات. حاولت التمنّع، فعاتبني: "ما بك؟ نحن هنا إخوة. واعذرني لتأخّري. ظننتك مثل صديقك معاذ، لا تخزّن". وتفاعل الباقون أيضاً، ولكن باعتذارات متلاحقة بأنّ ما بحوزتهم بالكاد يكفيهم

وإلّا لأجزلوا لي. خجلت كثيراً. لكنّي اطمأنّيت لحقيقة أنّهم، عكس ما كانت تركته الدّقائق السّابقة فيّ من انطباعات، ظُرفاء.

وأخيراً جاءنا صابر، مُثقلاً ببندقيّته وبجرمنديّته وبعدد من الأكياس البلاستيكيّة. دلف إلى الغرفة كصاعقة. رفع كفّه بمحاذاة صدغه وضرب بعقِبه الأرضيّة بجدّيّة ضابطٍ سيتلو بعد دقائق أهمّ بيان بتاريخ جيش بلاده!

"أهلاً صابر. استرح" قال له معاذ فزال توتّره وأخذ يتنقّل بنشاطٍ ويتحدث مع الجميع بنبرة مفعمة بالودّ. ناولني كيساً بلاستيكيّاً مُترعاً بالقات، معتذراً عن تأخّره، ومُكيلاً كمية من السُّباب لسائقي الباصات عديمي الخبرة، الّذين كانوا، في زعمه، سبب هذا الإبطاء.

"صابر هو المسؤول عن أمن هذه الوحدة" قال لي معاذ، ثمّ عرّفه بي كزميلٍ جديد. فرحّب بي على عجلٍ قبل أن يمضي ليقتعد الكرسي الرّابض أمام باب الغرفة من الخارج.

وباللّحظة الّتي تهيّأت فيها لاعتلاك الغصن الأوّل، ارتفع أذان العصر. والحقيقة أن شأناً كهذا لم يكن يمنعني، في الظرف العاديّ، من استمراريّة الاتّكاء وغضّ الطرف عن الصّلاة. مستكيناً هكذا لرغبتي الآنيّة، ومعوّلاً على رحمة الله الّتي قال إنّها وسعت كلّ شيء. لكنّي الآن، وأنا أرى تحفّز معاذ، لم أجد بُدّاً من مشاركته هذا الانضباط، سيّما بعدما أظهره لي من احترام. نحّيت، على مضض، كيس القات، وقمت للصّلاة معه.

فَرَشَ لنا المساحة الضّئيلة الشاغرة من الأرضيّة بشالٍ يعبق برائحةٍ زكيّة، وشرعنا نصلّي. وظلّ الباقون على انشغالهم، باستثناء قحطان. لحق معنا الرّكعة الأخيرة.

وبعد أن أتممنا الصّلاة، واستوينا مرةً أخرى في أماكننا، أنشأ معاذ يحدّثني عن طبيعة العمل هنا.

أكّد لي، بدايةً، أنّ الأمر غاية في السهولة. وأنّني، في ظنّه، طالما وأنا طالب جامعيّ، سأغدو، ربّما بعد أيّام قلائلٍ، أكثر دراية بمجريات العمل منه شخصيّاً. ثمّ أخذ يسرد لي ما سمّاها المزايا الّتي لأفراد هذه الوحدة: بأنّهم الأكثر اطّلاعاً على الشؤون العامّة والتفصيليّة للجيش. وبأنّهم الأكثر قرباً واحتكاكاً بمصادر القرار. وبأنّهم وحدهم، من الإداريّين، محظيّون بمصروف يوميّ. وبأنّهم، ما بين فترة وأخرى، يكافؤون من القيادة بمبالغ ماليّة كبيرة.

ثمّ عطف، محمّلاً نبرته ما استطاع من الجدّ: لكنّ الغلطة هنا يا صاحبي لا تُغتفر، لذلك على المرء أن يكون بالغ الاحتراس.

وإذ بدا له ارتباكي، استدرك، مطمْئِناً: لكن، كما أخبرتك قبلاً، العمل سهل. وسأتكفل أنا وباقي الزّملاء هنا بتدريبك. لن تُكلّف بأيّة مهام قبل أن تصير كفؤاً لها.

ثمّ استدرك مرةً أخرى: وعموماً، لستُ أنا المخوّل بتحديد الجزئيّة الّتي ستكون اختصاصك ومنذ متى ستبدأ. الفندم وحده يقرّر ذلك. وهو، كما سبق وأخبرتك، لن يعود من السعوديّة قبل أسبوعين.

إلى حينها، ستكون قد استوعبت كلّ التفاصيل وعلى استعداد لأيّ تكليف.

وكانت جملة أخرى تتوثّب في فمه غير أنّ شادي كبحها بإعلامه عن برقية أُرسلت من إحدى الوحدات القتاليّة. يطلبون فيها تزويد الأطقم العسكريّة التابعة لهم بالوقود في طريقها للجبهة. أمره بإخراجها. وما أن لفظتها الطّابعة حتى أمسكها زين العابدين وأوصلها لقحطان الّذي ختمها بختم الوحدة ورقّمها بتسلسل الأرشيف ثمّ ناولها أخيراً لمعاذ فقرأها بتمعّن قبل أن يتّصل بمكتب رئيس هيئة الأركان ويبلغهم. وبعدها أخذ يملي على زين العابدين تعليمات رئاسة هيئة الأركان لدائرة الإمداد والتموين العسكريّ، والمقتضية سرعة توفير ما تحتاجه تلك الأطقم من الوقود.

وبعد أن رقن زين العابدين هذه التعليمات، لفظتها الطّابعة ورقةً راجعها معاذ أوّلاً. ثمّ ناولها قحطان لتقييدها بالسجلّ. وأخيراً تمّ تمريرها لشادي الّذي أرسلها لدائرة الإمداد والتموين العسكريّ قبل أن يضمّها للملف اليوميّ، تمهيداً لأرشفتها.

وقد تابعت هذه المتسلسلة من الإجراءات خطوة خطوة. وكان معاذ واعيًا لاهتمامي ويبدو أنّه أعجبه، فاستأنف معي حديثنا السّابق، بقدر أكبر من الحماس: "أرأيت كم الأمر سهل؟ ما شاهدته الآن هو محور عملنا. تستطيع القول إن وحدتنا هذه بمثابة القلب للجيش. إلى هنا يصل كلّ شيء، ومن هنا أيضاً يمضي كلّ شيء. فكما تدرك، الجيش يتكوّن من شقّين: المناطق، والّتي تتشكّل الواحدة منها من عدد

من الألوية القتاليّة. والدوائر، والّتي مهمّتها تنسيق وتسهيل عمل المناطق وتوفير احتياجاتها ومتطلّباتها.

ونحن نعتبر حلقة الوصل بين هذين الشّقين. حين يحتاج لواء قتاليّ ما لأيّ شيء، يرفع بطلبه للمنطقة الّتي هو ضمنها. وهي بدورها، إن وجدته منطقيّاً وماسّاً، ترفعه إلينا. ونحن يقع على عاتقنا إبلاغ الدّائرة الّتي يُعتبر هذا الطّلب ضمن اختصاصها وتوثيق هذه الإجراءات ومتابعة التنفيذ. يكون ذلك، طبعاً، بعد تواصلنا مع رئاسة هيئة الأركان، لأخذ تعليماتها بشأن المسألة المطروحة. حسناً. هذا هو الإطار العام لعملنا.

يبقى فقط أن تدرك أنّ جزءاً مهمّاً من مسؤوليّتنا يتمثّل في إعداد تقرير يوميّ عن سير الأمور بكلّ وحدات الجيش. نرفعه قبل الفجر من كلّ ليلة للجهات المعنيّة. نستعرض فيه مُجمل ما حدث في كلّ الوحدات العسكريّة بالأربع والعشرين السّاعة الأخيرة. نسمّيه الموقف اليوميّ للجيش. ويتمّ إعداده بالتراتبيّة السّابقة نفسها: يرفع كل لواء موقفه للمنطقة، وهي بدورها ترفع لنا موقفها المتضمّن مواقف كلّ ألويتها، وهنا نجمع مواقف كلّ المناطق، بالإضافة لكلّ مواقف الدوائر _ حيث هي أيضاً مطالبة بذلك _ ونصوغ، من مجموع ذلك، الموقف الشّامل. ونرسله، من ثمّ، عبر الفاكس، لثلاث جهات: مكتب رئاسة الجمهوريّة، ومكتب نائب القائد العام للقوّات المسلّحة، ومكتب رئاسة هيئة الأركان".

وكان لهذا التفصيل الّذي أسبغه عليّ أثراً إيجابيّاً في نفسي، مكّنني من تجاوز خيبتي بواقع القصر ومظاهر الأشياء فيه، واستردّيتُ بعضاً من حماسي الّذي كانت مشاهداتي الأوّلية قد أطفأته. فأن يكون الجيش على هذا القدر من التنظيم، ولو في الإطار النّظريّ فقط، كان ذلك بالنّسبة لي اكتشافاً قيّماً أوحى لي بنجاعة ما يدور هنا. وأزمعت أن أعمل بجدٍّ وأن آخذ وجودي بهذا المكان على محمل المسؤوليّة. لا أحد يعلم كم ستلتهم هذه الحرب من الأيّام ومتى ستتسنّى لي العودة لحياتي كمواطنٍ عاديٍّ.

ومضى الوقت يحثّ خطاه نحو المساء. وبالتّزامن، كان الجميع يخلع عنه الرتابة والبطء. إلى أن غدت الغرفة، مع بداية هبوط اللّيل، أشبه بموقع بناءٍ يغلي بعُمّاله وبضجيج آلاتهم.

كان الرّنين المستمرّ للهواتف، والصّيحات المتداخلة للطّابعة والماسح الضوئيّ والفاكس، ووقع الختم على الورق، وما كانت تبثّها محطّات اللّا سلكيّ من أصوات لمقاتلين من أماكن متفرّقة، بالإضافة لمحادثات فريق العمل؛ كلّ ذلك يختلط بالزّطيط الحادّ والمتطاول للمروحة، مُشكّلاً حالة مروّعة من الصّخب. ولأتجنّب أكبر قدر من تداعيات أوبِرا الجنون هذه على أعصابي، طفقت أتلهّى بتقليب ومطالعة أوراق ملفّ التقطته من تحت الطاولة، كان ملقى بمتناول يدي.

وكانت هدنتنا الوحيدة مع هذا الضجيج في الثامنة مساءً، حين خرجنا لتناول العشاء أمام المبنى.

وقد لحظتُ، في خروجنا، اختفاء تلك الرّائحة النتنة، رغم أنّ الأحذية والجوارب ما تزال على حالها، مبعثرة بامتداد الرواق. كانت حاسّة الشّم قد اصطلحت معها. وخطر لي أن لا شيء يستعصي على التأقلم. فقط يختلف الوقت الّذي نستغرقه لذلك، تبعاً لجسامة الظرف.

وحين جلسنا للعشاء، خاب أملي أيضاً. لم أجد أيّما اختلاف بين عشاء القصر وعشاء المعسكر: جفنة فول رديء الطهي، وعدد من الكُدَم.

قلت مداعباً، دون أن أركّز نظري على أحدٍ بعينه: "فول أيضاً؟! هنا؟! في القصر؟!". ردّ شادي: "طبعاً، ضيفنا العزيز. ولكن ليس الجميع هنا يتناولون العشاء نفسه. لا أدري لماذا تعاملنا الإدارة بهذه الفوقيّة، رغم أنّنا الأكثر عملاً وإنجازاً. وعموماً، يبدو أنّ الفول والكدم ستظلّ الوجبة الأكثر حضوراً في حياة الجنديّ اليمنيّ عبر العصور، مهما تعاقبت عليه الأنظمة والظروف". داخَلَ قحطان: "للأمر علاقة بكون الفندم ليس من المنطقة الجغرافيّة الّتي رئيس الأركان من أبنائها، وإنّما من أخرى تنافسها نفوذاً". ولما طالعته عيوننا المستغربة، استدرك: "بالطّبع لا علاقة لرئيس الأركان بهذه الشؤون الصغيرة. حاشيته هم الّذين ينحدرون لمستوىً كهذا. يعاملوننا كما لو أنّ بينهم والفندم ثأراً، وكما لو كّنا نحن أهله وعشيرته ولسنا جنوداً انتماؤنا فقط للوطن". "كلّهم كلاب" غمغم صابر، وهو يجهد لابتلاع لُقمة عظيمة.

وكانت جملة صابر هذه كافية لإخراج معاذ عن صمته الّذي ظلّ عليه منذ البداية. زمجر: "كفّوا عن هذه الثرثرة. تناولوا طعامكم برضىً

واحمدوا الله على نعمائه. نحن في حرب أضحى النّاس فيها معدمين، لا يتوفّرون على لقمة عيشهم. وأنتم، يا أبطال الجيش، تتدلّلون وتتبادلون الحنق عن صنوف الأطعمة الّتي لا تجدونها لائقة بكم!". وبدا كما لو أنّه على وشك أن يحشر الكدم في حلوقنا بيده، غير أنّه لم يفعل.

ومضينا في العشاء بصمتٍ. ولأن الجوع كان قد أشعل أحشائي، سيّما وأنّي أقدمت على مضغ القات بمعدة خاوية، أخذتُ أزدرد لقيماتي كمن خرج لتوّه من أسرٍ.

وكانت الأضواء الصفراء الخافتة المبثوثة في أرجاء السّاحة بغير ما انتظام، تزيد المشهد بؤساً عن ما كان عليه في ضوء النّهار. لاحظت ذلك حين بدأت معدتي بالامتلاء. وأنشأتُ أعتصر دماغي لاستذكار اسم الفيلم الأمريكيّ الّذي كان بطله نزيل سجنٍ إضاءته تماثل هذه. لكنّا انتهينا من العشاء ولم تكن ذاكرتي أسعفتني به بعد.

وبينما عاد الجميع، كلّ لمكتبه وعمله، مضيت أنا للسّاحة. هاتفتُ جدّي. أخبرته أني بخير وأنّ أموري تسير كما أشتهي. وبعد أن أخبرني بأنّهم، أيضاً، بخير، أكّد عليّ، كعادته بكلّ مهاتفة، أن أحرص على التّخفّي ما أمكن. وأن لا أفعل شيئاً من شأنه فضح مكان تواجدي لأهل قريتنا أو من يعرفنا. مختتماً هذه التّوصية بالتّذييل الأثير: لا أحد يعرف ما الّذي سيأتي به الغد. ولما طلبت منه تمرير الهاتف لجدّتي، أخبرني أنّها تغطّ في النّوم منذ زمن، وأنّها تدعو لي باستمرار وتتساءل، قلقةً، عن حالي. وانتهت المكالمة، من ثَمَّ، على دعواته وأشواقي.

وكي لا ينفرد بي الحنين، طفرت عائداً لرفاقي الجدد. وكان الإجهاد قد بلغ منّي غايته. واستمرّت وتيرة العمل في تصاعدها لحدٍّ ظننت أنّ المعركة النّهائيّة الليلة، وأنّ صباح الغد لن يطلع إلّا والحرب قد حُسِمَت.

وكنت أعوّل على اهتمام معاذ بي. ظننته سيلحظ تهالكي فيوفّر لي مكاناً للرّاحة والنّوم. لكن صراعه الشّرس مع الهواتف النّاعقة أمامه باستمرار، وكمية الأوراق الّتي كانت الطابعة تبصقها على طاولته باطِّراد، بما تتطلبه من إجراءات، وكذا استفسارات باقي الفريق عن بعض الجزئيّات؛ كلّ ذلك جعله ينسى وجودي من الأساس. حتّى أنّه لم ينتبه لدخولي.

لكن جملة الإنقاذ ما لبثت أن جاءتني. "يبدو عليك الإرهاق". لم يكن القائل معاذ، بل زين العابدين. قالها في تبسّمٍ شجّعني على الاعتراف بأنّي بالفعل منهوك وبحاجة ماسّة للنّوم.

ابتسمتْ لي عيناه الصافيتان وطلب منّي أن أتبعه. ولدى محاذاتنا مكتب قحطان، طلب منه مفتاح غرفة الأرشيف. إنّها المقابلة لهذه الّتي للعمل. غاص في ظُلمتها لثوانٍ، أشعل الضوء وعاد، من ثمّ، إلى عمله.

ودخلت هذه الغرفة لأجدها مقسومة، بطاولة مستطيلة، لجزءين: الأعلى، وهو الأكبر، جدرانه عبارة عن رفوف أغلبها شاغر وبعضها يحوي عدداً من الملفّات والخرائط، وفي وسط هذا الجزء طاولة متوسّطة الحجم، محفوفة بعدد من الكراسي الصغيرة. أمّا الأدنى، حيث

أقف الآن، فقد جعلوه، على نحو اعتباطيّ، غرفة نوم. يحوي فرشين متقابلين تناثرت حواليهما قطع متّسخة من الثّياب.

كان الجوّ خانقاً، أشعرني أنّي حُشرت بجوف فرن مشتعل. غير أنّي وجدت النّافذة إزائي مسدودة بمكيّف بدائيّ. من ذلك النّوع الّذي يعمل بسكب كميّة من الماء في جوفه وتوصيله بالكهرباء. خطرت لي، وأنا أُحدّق فيه، المتاحف الأثريّة والمومياءات. أسرعت نحوه وأوصلته بالكهرباء، ليردّ عليّ بدويٍّ أكبر من ذاك الّذي لمروحة غرفة العمل. لكنّه لطّف الجوّ قليلاً، وهذا ما كنت أحتاجه.

ولكي أحظى بأكبر حصّة من نسائمه، مضيت إلى الجهة المقابلة. أزحت بقدمي قطع الملابس المبعثرة على الفرش، وتهالكت فوقه.

وكما هي العادة، حينما أكون على عتبة واقع جديد، تملّكني الأرق. ولأشغل نفسي بما هو أكثر جدوى من الاستماع لدبيب التّعب في أوصالي، رميت بفكري للوراء. تحديداً، لبداية وجودي بمدينة مأرب. أخذتُ أسترجع أبرز محطّاتي لهذه الفترة، وأنا في برزخٍ بين الصّحو والنّوم.

2

كان قد مضى على نزوحي إلى مأرب زهاء خمسة أشهر. قضيت أوّلها في البحث عن عملٍ مدنيٍّ. لم يكن الالتحاق بالجيش حينها ضمن خططي. كنت لتلك اللّحظة لم أعِ المعنى الحرفيّ لمصطلح النّزوح! وكان ذلك الشّهر كافياً لإقناعي بأنّ واحدة من المهام الأساسيّة للحرب: أن تحرمنا ترف الخيارات المتعدّدة.

لم أوفّر فيه باباً رأيت من خلاله إمكانيّة الحصول على عملٍ يعصمني من التشرّد دون أن أطرقه: محلّات بيع الملابس الجاهزة، مكاتب دِلالة العقارات، محلّات بيع الأجهزة الإلكترونيّة، المزارع، محلّات الصرافة والتحويلات الماليّة، الفنادق، المطاعم، ...، وحتّى في البسطات المتواضعة المنثورة على ضفاف الشوارع الرئيسيّة للمدينة لبيع الفواكه والخضروات. وفي كلّ مرة كانت يدي الطّارقة تعود، ذاويةً، إلى جيبي، مجلّلةً بعار الإخفاق المذِلّ.

وحينما تقطّعت بي السُّبُل دون أن أجد عملاً ما، اتصلتُ بنشوان. طلبت منه مساعدتي للالتحاق بالجيش. فمع الأخذ بالاعتبار استحالة مغادرتي لمأرب وعودتي للقرية، لم يعد بمتناولي سوى هذا المسار.

زوّدني برقم أحد أصدقائه المعنيين بالحشد لمعسكرات الشرعيّة، اتصلتُ به، ومن صباح اليوم التّالي كنت واحداً من المجنّدين الجدد في

الجيش الوطنيّ. مرتديّاً البزّة العسكريّة، ومنتصباً، تحت أشعة الشمس الحارقة، في صفٍّ أخرقٍ من أشباهي، بمنطقة بإحدى ضواحي المدينة تمّ تجهيزها كمعسكر استقبالٍ وتدريبٍ للجنود المستجدّين.

وكنت، بخطوتي الجريئة هذه، أراهن على قدرتي الملحوظة في صناعة علاقات جيّدة مع من أنتقيهم من النّاس في زمنٍ قياسيّ. فقد ظننت بوسعي استغلال هذه الموهبة (وكنتُ مزهوّاً بها) لاكتساب بعض الصّداقات مع ضبّاطٍ أستغلّها لاحقاً في الحصول على عملٍ إداريٍّ في المعسكر، فأنجو من مصير التوجّه لجبهات القتال، المصير الّذي كانت تصطكُّ ركبتاي وترتعد فرائصي لمجرّد التفكير بكونه احتمالاً وارداً!

وعلى الرّغم من نجاحي في إحراز بعض الصّداقات الّتي خططت لها، إلّا أنّ ذلك لم يفدني بشيء. بل إن نتائجه جاءت عكسيّة تماماً. إذ فُجِئت بالقرار الّذي اتّخذته القيادة، والّذي جاءنا به، نحن المجنَّدين الجدد (كنّا نشكّل كتيبةً قوامها مئة وخمسون فرداً)، ضابط برتبة صغيرة، كنت كسبتُ صداقته.

فبعد أن تمّ جمعنا في سواء المعسكر، تحت شمس الظّهيرة، أخبرنا هذا الضابط، مغتبطاً، بأنّنا سنتوجّه، تحت قيادته، مع حلول المساء، إلى الجبهة. دفاعاً عن الدّين والوطن والعِرض. ومضى يُخلِّلُ خطبته الحماسيّة هذه بنظرات باسمةٍ يخصّني بها. وكأنّما ليهمس لي من خلالها: لن أستغني عنك يا صديقي! وكنتُ أحِسُّ بقلبي، من هول فاجعتي، يخفق من قاع قدميّ.

وما أن صَرَفنا، بعد إتمام خطبته الّتي شعرت بها طالت دهراً، حتّى ألصقتُ على وجهي تلك الابتسامة البلهاء الّتي يلجأ إليها المرء كتكتيك آنيّ لتجاوز ظرفٍ طارئٍ، واتّجهت إليه. أخبرته بضرورة خروجي من المعسكر للمدينة، لحاجة يتوجّب عليّ قضاؤها ليتسنّى لي المسير معه مساءً مطمئنّ البال.

أمسكني من كتفيّ وتطلّع إليّ بنظرة الواثق، ومبتسماً منحني إذن الخروج. متمنّياً لو كان جميع جنوده على شاكلتي، واعين للخطر الّذي يتهدد البلاد وعلى هذه الدرجة من الحماس لصدّه!

ابتلعتُ حنجرتي مراراً، وانطلقت للخيمة (كان المعسكر مستحدثاً في مساحة متوسّطة من صحراء. لم تبنَ فيه، بعد، أيّ مبانٍ لسكن الأفراد أو القيادة. الجميع فيه يقطنون الخيام). خلعت بزّتي العسكرية وارتديت ما كان بمتناول يدي. وانسللتُ، مخلّفاً حقيبة ملابسي كي لا أثير بحملها تساؤلات أحد أو شكوكه، سيّما الضابط المسكين الّذي ظلّت ثقته العمياء بي تحزّ في نفسي إلى أن غادرت المعسكر، تشعرني أنّما أفعله ضرب من النّذالة. "على كلٍّ، لم آتِ لمأرب لأذهب للموت بقدميّ" همست لذاتي، محاولاً قطع استرسال هذا الشعور.

ومضيت راجلاً إلى أن بلغت الطريق المؤدّية للمدينة. وبعد لأيٍ، حظيت بأحد الباصات فانغرست بأحد مقاعده، حذو زجاج النّافذة، مستسلماً لبراثن التّيه وقلّة الحيلة الّتي أخذت تتناوشني بلا رحمة. وكنت مدركاً أنني استنفدت كلّ خياراتي الممكنة للعيش هنا بكرامة، وأنّي

صرت وجهاً لوجه مع مصير التشرّد، رفقة الأفارقة الّذين نزحوا عن بلدانهم هرباً من الحرب والجوع إلى مجهولٍ تجسّد لهم أخيراً بهذه المدينة الّتي منحتهم، إضافةً لبعض الأعمال التّافهة، حقّ التسوّل لإعالة ذواتهم.

وبدأ الخوف من الآتي يجسّد نفسه في مخيّلتي صوراً بالغة الفظاعة: تخيّلتني شحّاذاً أمضي نهاري جالساً على رصيف مهمل أستجدي المارّة إحسانهم، وحين لا يجودون بما يكفي لسدّ رمقي، أمضي، بثوبي المهلهل والمتّسخ، إلى صناديق القمامة، أنقّب فيها عن ما يعتقني من الموت جوعاً!.

كانت هذه المرّة الأولى الّتي أشعر فيها بالضياع، هكذا مجرّداً من كلّ أشكال الإسناد. أنظر لتحت قدميّ فأرتعد من الهاوية المتحفّزة لابتلاعي. المرّة الأولى الّتي يسكب فيها اليأس مرارته في حلقي، مستنفداً منّي كلّ ذرّة قوّة.

أدركت، حينها، أنّ أشنع ما تفعله فينا الحروب، أنّها تجبرنا على السّير فُرادى. توزّعنا لدروب الشتات جاعلة مصائرنا رهن أمزجتها المريضة والمضطربة.

"لو أنّ جدّي هنا لكنت بخير" نطق صوتي الدّاخليّ والتمع للحنين في قلبي ألف مخلب. حنين إلى جدّي وجدّتي. إلى قريتي، وإلى الجامعة ورفاق الدراسة. حنين لكلّ تفاصيل الزّمن الجميل الّذي كانت أكبر همومي فيه امتحاناتي الدراسيّة، الزّمن الّذي قضى تحت سنابك هذه الحرب اللّعينة. وكان هذا الخليط الشّرس من الأحاسيس يراكم

ثقله تحديداً في جوف حنجرتي الّتي بدأت أشعر بتمزّقاتها، والّتي حال انهمار دموعي دون انفجارها.

وصلت أخيراً إلى المدينة. وكانت آخر ورقة نقديّة في جيبي تلك التي دفعتها أجرة الباص (ورقة مهترئة من فئة المئة ريال، يفوح منها عطن الاستخدام السيّء لسنوات).

ومنذ نزولي عن الباص شرعت، وأنا أسير في الشارع على غير هدىً وبحالٍ من العزلة عن صخب النّاس وأشيائهم، أستعرض في خيالي قائمة الأصدقاء الّذين تعرّفت عليهم بفترة بحثي عن عمل، وكذلك الّذين صادقتهم في المعسكر قبل أن يخرجوا منه لدروب المدينة لظرف أو لآخر. وبدأت أرتّب أسماءهم حسب إمكانيّة وحدود الانتفاع منهم: سألجأ إليهم ريثما أخترع لورطتي هذه حلّاً.

وبدلاً من الشعور ببعض الارتياح لإتمام جدولة تلك الأسماء، باغتني حِسٌّ مرير باللّا جدوى، أفقدني كلّ إمكانات التصبُّر. وعدلت عن تلك الترتيبات، مقرراً مهاتفة جدّي. سأشكو له حالي ولن آبه لألمه من ذلك. هو الّذي أمرني بالنّزوح، وعليه وحده إخراجي من هذا المأزق.

وبينما كنت أبحث في دليل الهاتف عن رقمه، وأنا أُحَضِّر الجملة الأولى الّتي سأقولها له، أمسكتني يد من كتفي، وسمعت اسمي في نداءٍ حميم. التفتُّ فإذا به أحد رفاق نشوان. كان قد خرج لتوّه من سوق القات الّذي يخرج منه الآن نشوان نفسه وباقي رفاقه.

ظللتُ أحدّق به مشدوهاً، بينما يمضي نحوي مبتسماً. إنّه هو بعينه، بقامته المديدة، وببزّته العسكريّة المشدودة على جسده، بمظهرٍ يوحي بالتأنّق ويترك طابعاً بالثّقة.

وقد بدا أكثر سُمرة من آخر مرّة رأيته فيها. وأضحى شعره أكثر فوضويّة وتجعّداً. ولحيته نامية أكثر من المعتاد، ومُغَبَّرَة. من إحدى كتفيه يتدلّى كلاشنكوف بدت عليه آثار الاستخدام المفرط، ومن الأخرى جرمنديّته الغاصّة بأمشاط الرصاص وبالقنابل، وكان أحد أحزمتها مقطوعًا، فاضطر لحملها على كتف واحدة، عوضاً عن ارتدائها، كما ينبغي، من الكتفين.

نظرت للسّماء ممتنّاً لهذه الصدفة الّتي أتت به إليّ. وكنت قررت لحظة خروجي من المعسكر أن لا أتّصل به، رغم إدراكي بأنّه الوحيد الّذي بإمكانه مساعدتي.

كان استذكاري لكلّ الخدمات الّتي أسداها لي، ابتداءً من النزوح الّذي تكفّل بكامل تجهيزاته، ومروراً بدعمه المادّي بالشّهر الّذي قضيته أمشّط شوارع المدينة بحثاً عن عمل، وانتهاءً بمساعدتي في الالتحاق بالجيش، وما أكرمني بها في المعسكر من توصيات؛ كان استذكاري لكلّ ذلك يُثقلني بالخجل ويأمرني بالكفّ عن لعب دور الطفل والبدء بالاعتماد على نفسي كرجل.

"ما بك؟!" سألني مرتاباً من سكوني المشدوه ومن نظرتي العالقة في تفاصيل وجهه. عانقته مجيباً بأنّني بخير. وكنا واقفين في زحمة الشارع، فدعاني للانضمام إليهم: "سنذهب للغداء ثمّ للمقيل. سيكون مقيلاً

رائعاً"، وغمزني مداعباً:" لا تقلق. ابتعتُ من القات ما يكفي كلينا ليومين متتاليين". وضحكنا. ثمّ مشينا إلى أقرب مطعم.

كان مطعماً حديثاً يقدّم فقط وجبة السّمك. وكنت فاقد الشهيّة فلم آكل إلّا بضع لقيمات، بدافع المجاملة. وقد تندّر أحد رفاقه، قائلاً: أخيراً وصل السّمك مأرب! فردّ عليه، غامزاً: ألم تزُر السدّ قبلاً؟!

وتوجّهنا بعد تناولنا الغداء لفندق الفخامة. وهو، عكس ما يوحي به اسمه، فندق بسيط ورخيص كان نشوان، في عوداته النّادرة من الجبهة، يختاره دون سواه، فقط بفعل الاعتياد. يكتري إحدى غرفه ويقضي فيها مع رفاقه فترة مكوثهم في المدينة، والّتي لا تتعدّى غالباً اليومين.

وقد احتجّ رفاقه على ارتفاع سعر الغرفة عمّا كان عليه في زيارتهم الفائتة، قبل نحو شهر. وأخبرهم العامل أنّ بعض الفنادق رفعت أسعارها خلال هذا الشّهر للضِّعف. وأنّها، رغم ذلك، غاصّة بالنّزلاء. وأنهى نشوان هذه المشادّة بأن دفع كامل المبلغ، لنسير وراءه للغرفة المكتراه.

ومنذ بداية مقيلنا لنحو الرابعة عصراً، لم أستطع مشاركتهم أيّاً من أحاديثهم. كانوا نهمين في حديثهم كما في تناولهم الغداء. بدوا كما لو أنّهم يُعبِّئون لحظاتهم هذه ما يستطيعون من حياة، وكأنّما بدافعٍ من إدراكهم بأنّهم سيعودون للانتظار على حواف هذه الحياة في جبهة

القتال، رهن أقدارٍ لا يعلمون ما إن كانت سترأف بهم هذه المرّة أيضاً أم ستصفعهم بنهايةٍ ما يزالون يتمنّونها بعيدةً مسافة آمالهم العريضة.

تحدّثوا كثيراً عن عالمهم الحاليّ المسمّى بصرواح، عن أشياء تشبه الأساطير: اقتحامات لمتارس الخصم، إحباطات لتسللات ليليّة، المؤن الّتي لا تأتيهم إلا لماماً، شراسة التضاريس وتعقيداتها، وعن جرحى وقتلى وصراخ ودويّ.

كثير من الأشياء تحدّثوا عنها، في حين بقيت منكفئاً على همّي الطّارئ، أفكّر كيف أصيغه لنشوان بطريقة تحفظ ما يمكن من ماء وجهي. فقط قصّة واحدة من كلّ أقاصيصهم تلك، انتزعتني من هذه البئر العميقة وأرغمتني على تتبّعها باهتمام وسؤالهم عن بعض ملابساتها. حدثت قبل نصف شهر من الآن.

كان نشوان وأحد رفاقه هؤلاء مُتمترسَين في تبّة أُنتزعتْ من الانقلابيين مؤخّراً. وكانت أقرب تبّة إليهم من الّتي ما تزال بحوزة الخصم، على بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات (وهي مسافة تبيّن لي من حديثهم أنّها، بمقاييس المعركة في صرواح، كبيرة نسبيّاً). وكان الوقت في الظّهيرة حينما تفاجآ بمقاتلٍ يسير منها باتّجاههما. منع نشوان رفيقه من قنصه. أراد أن يعرف ما الّذي ينتويه هذا الشجاع الماضي نحوهما بهذا الخطو الواثق، وفي عزّ الظّهيرة!

وقد استمرّ هذا الآتي في دنوّه، إلى أن حاذا مترسهما. صبيّ لا يتجاوز الثانية عشرة. مدجّج، وتبدو عليه الحماسة. ألقى عليهما التحيّة: "السّلام عليكما يا ولِيّ الله!". تطلّعا فيه بتعجّب، وردّا تحيّته.

وغمز نشوان صاحبه أن يهدأ. طلب منهما بعض الماء، فدعياه للجلوس وأعطياه ماءً. وجلس بعد أن وضع إلى جانبه كلاشنكوفه الّذي غطّت لواصق شعار الحركة الحوثيّة أغلب تفاصيله.

لم يشأ نشوان إنهاء الأمر هنا، أراد المضيّ أبعد. سأله عن اسمه فأجاب: أبو الكرّار! وزاد أنّه مختصّ بمهمّة الاستطلاع.

وبعد أن سألهما أيّ التباب تنتهي عندها سيطرة أولياء الله، أخذ يتبادل مع نشوان نقاشات عن وضع الجبهة وعن معجزات السيّد والأولياء المقاتلين تحت لوائه. ويكتالون الشتائم للمرتزقة والمنافقين، الّذين تحالفوا مع السعوديّة وأمريكا وإسرائيل ضدّ أبناء وطنهم، متآمرين على المسيرة القرآنيّة يحاولون تبطئة سيرها المبارك نحو الأقصى لتحريره.

وكان رفيق نشوان يستمع إليهما بقلق وحذر شديدَين. وفي كلّ هذا لم ينتبه الصّبيّ لاتجاه المترس ولا لاتجاه فوهات الأسلحة الرّابضة فيه. كان، كأيّ طفل، جاهلاً تماماً بكل ما يتعلّق بالحرب.

ولم يكبح نشوان عن المضيّ لفصول أبعد، سوى ملاحظته أنّ جرمنديّة الصبيّ غاصّة بالقنابل اليدويّة. فكّر أنّ ثانيةً واحدةً تكفيه، حال انتباهه لحقيقة وضعه، لتفجير كامل المترس. فوثب عليه وثبّت يديه، ثمّ انتزع عنه جرمنديّته وسلاحه وناولهما رفيقه.

وطفق الصّبي، وقد أدرك الفخّ الّذي وقع فيه، يتوسّلهما مذعوراً: "أرجوكما، لا تذبحاني بالسّكين! اقتلاني بالرصاص". وأخذ يكرر هذه الجملة وأمثالها بما يشبه الهذيان، في حين يبذل نشوان قصارى جهده لتهدئته وطمأنته، مكرراً بأنّهم إخوته، وأنّه سيكون بخير.

وحين سألتهم أين هو الآن، أخبروني أنّه، مع أمثاله من الأطفال، في مدينة مأرب. يتلقّون الرّعاية ضمن مشروع معنيّ بإعادة تأهيل هذه الشريحة من الأسرى.

تملّكني الأسى لحاله وترمّد القات في فمي. وفكّرت أنّه لو لم يكن بهذه الحرب سوى مأساته بتلك الدّقائق الّتي سحقته ذعراً، لكان ذلك كافياً لمنحها ما ترتديه الآن من وجهٍ قبيحٍ.

ومع دنوّ المغرب، كان رفاق نشوان قد ضبّبوا الغرفة بدخان سجائرهم، وأخلدوا لشاشات هواتفهم في سكون تامّ. وبينما أنا أفكّر بمدخلٍ مناسب لأحدّثه عن مأزقي الحاليّ، رمقني هو بنظرته المتفحصة، سائلاً: "لم تسِر أمورك في المعسكر كما أردت، أليس كذلك؟". واسترسلتُ أجيبه، كمن انزاح عن صدره تلٌّ: "نعم. لقد هربت اليوم من المعسكر. أرادوا توجيهنا إلى الجبهة. وكما تعرف، ليس هذا ما أردتُه".

وبعد أن رسم على وجهه ابتسامةً رزينةً، أخبرني أنّ أحد أصدقائه الضبّاط، يشتغل بوحدة معنيّة بجانب إداريّ، أخبره، قبل أيّام، بأنّ وحدته بحاجة لمزيد من الجنود ذوي الاختصاصات الجامعيّة. وقال لي أنّ مقرّها في القصر الجمهوريّ. وسألني ما إذا كنت مستعداً للعمل هناك. فأجبته، ولم أكد أصدّق، بأن نعم.

وبعد أن اتصل بمعاذ وأوصاه بي، أعطاني رقم هاتفه على أن أتصل به صباحاً قبل ذهابي إليه.

ولم أستطع النّوم طوال الّليل. ظللتُ أتخيّل واقعي في القصر، وأبرمج نفسي على تصرّفات الرّجل المهمّ الّذي سأكونه منذ الغد! وكنت، ما بين فينة وأخرى، أرمق نشوان بما يستحقّها من نظرات امتنان. تناوبتُ على ذلك إلى أن ابتلعني النّوم. لاشكّ أنّ الفجر حينها كان قد غبّش وجه المدينة.

الفصل الثاني
الجيش

1

وعلى مدى الأسبوعين التّاليين، كانت الأيّام نُسخاً مكرّرة من اليوم الأوّل. لم يحدث فيها ما يستحقّ الذّكر. استهلكتها، بالإضافة لتوطيد علاقتي بأعضاء الفريق، في مراقبة سير العمل والاستفهام حول جزئيّاته الملتَبَسَة، إلى أن ظننتُ بمقدوري القيام بأيّ تكليف يلقيه الفندم على عاتقي لدى عودته.

المشكلة الوحيدة الّتي عانيتها افتقاري للثّياب. لم يكن لديّ منها سوى ما ارتديت في خروجي من المعسكر. وبالطّبع لم يكن بحوزتي من المال ما يكفي لابتياع بعضها. لكن معاذ حلّها بأن منحني من ثيابه معوزين وقميصاً.

وقد ظلّوا يتندّرون من إصراري على ارتداء السُترة، وينعتونني بالقرويّ. وكانوا في ذلك على حقّ. ففي طقسٍ يتمنّى فيه المرء لو بوسعه سلخ جلده للتخفيف من وطأة الحرّ، كان ارتدائي للسُترة أمراً لا يُفَسّر.

لكنّي، بالرّغم من ذلك، وهذا ما لم أستطع فهمه أو تبريره، لم أكن أتخفّف منها إلّا حينما يكون العَرَق قد خطّطها ببياض أملاحه. أخلعها، عندئذٍ، لأغسلها ثمّ أعود لارتدائها فور أن تجفّ، ويا لسرعة ما كانت تجف!

وقال معاذ إنّ غرابتي هذه ستمّحي حينما نُلزَم، جميعاً، بارتداء الزيّ العسكريّ الّذي ستزوّدنا دائرة الإمداد قريباً بعددٍ منه.

لقد كان هذا، بالفعل، أكثر مواضيعنا استهلاكاً خلال تلك الأيّام الّتي انقضت بعودة الفندم من السعوديّة، وابتداء حقبة جديدة.

لم يأتِنا من فوره. هاتَفَنا ليلة عودته، وأخبرنا أنّه سيمرّ بنا صباحاً. وعلى الفور تحوّلت الغرفة لخليّة نحل. ليس لإنجاز المهام وفقاً لسيرها المعتاد وحسب. وإنّما، أيضاً، لتلافي أيّما قصور يمكن أن يكون قد حدث بالأيّام السّابقة دون وعي، خشية أن يلتقطه في زيارته الصباحيّة.

انهمك معاذ في تقليب ومراجعة مجموعة من الملفّات كانت ما تزال بغرفة العمل ولم تودع، بعد، في الأرشيف الّذي انطلق إليه قحطان وأخذ يفرغ بعض أرففه ويملأ بعضاً آخر، ويقلّب ملفّاته كمن يبحث عن ضالّة. وهرع شادي لتنظيف الحمّامات، الّتي كان خَطّ على أبوابها جُمَلاً قال أنّما أراد بها تنبيه القذر عبداللّطيف لأهميّة تنظيف المكان قبل خروجه. وحملت مع زين العابدين عبء إعادة ترتيب غرفة العمل. أمّا عبداللّطيف وصابر فكان نصيبهما الرّواق والمدخل.

ورغم أنيّ لم أكن قد التقيته قبلاً، إلّا أنّ هذه العاصفة الّتي أحدثها بمجرّد إعلامه بأنّه سيأتي غداً، وضعتني أمام صورة واضحة عنه. أدهشني أن يكون على هذا القدر من الحزم، فانتظرت لقاءه بفضول كبير.

ولم تكد الساعة تشير للتاسعة من صباح اليوم التالي، إلّا وقد صار بيننا، في لفيف من المرافقين المدججين. عرفت لاحقاً أنّ جميعهم من أقربائه. كان عددهم يقارب ضعف عددنا نحن طاقم العمل. وقد وجدته بالفعل كما أوحى لي ما أحدثه باتصال الأمس من إرباك: رجلاً سلطويّاً. متجهّم الوجه في الغالب. يأمر بلهجة جافّة. ويحرص على اقتضاب كلمات الإشادة والتشجيع. كما يبالغ في كلّما من شأنه إظهاره بمستوى من السطوة أعلى.

ولاحظنا أنّه يمشي متباعد السّاقين على نحو غريب. علمنا لاحقاً أنّه خضع لعمليّة استئصال بواسير بأحد مستشفيات الرياض، قبل عودته. أخبرنا هو، معللاً عدم قدرته على التواجد بيننا طوال فترة الدّوام.

لكنّه رغم جديّته، أظهر لنا، ذلك اليوم، قدراً ملفتاً من التودُّد. وقد جلب هديّةً للجميع، باستثنائي. ساعة يد من النّوع الرخيص. وقال لي، بما يشبه الاعتذار، أنّه لم يعمل حسابي في ذلك، كوني لم أكن أصبحت ضمن فريقه. وسألني عن إمكانيّاتي في العمل، فتجنّبت الإشادة بنفسي. ولم يأبه لذلك، فأوكل إليّ سجلّات الخسائر البشريّة والماديّة. لم يكن هذا بنداً في عمل الفريق طوال الفترة الماضية. استحدثه لي.

وقال بأنّ دفاتر السجلّات ستكون لديّ عصر اليوم، ضمن قرطاسيّة ضخمة اشتراها من السعوديّة. بالإضافة لمروحة جديدة وطابعة من الحجم الكبير، وحاسوب مكتبيّ حديث.

وكرر عدّة مرّات، أنّه اشترى هذه الأشياء من ماله الخاص، وأنّه اجتهد كثيراً في ذلك. وحين أوشكت الشمس أن تتوسّط السماء، دعانا جميعاً للغداء في منزله.

ركبنا معه بسيارته ولحقنا مرافقوه بسيارة أخرى. مع عبورنا البوّابة الخارجيّة، انتبهت لكوني لم أكن غادرت القصر منذ دخلته. وقد رمقت باروداً متكوّراً خلف كتلته الخرسانيّة، يستظلّ.

وحين وصلنا إلى البيت (بمنطقة المطار، وسط المدينة)، هالتنا ما رأيناها فيه من مظاهر التّرف. ابتداءً بالبوّابة المطرّزة والسور المنقوش، وليس انتهاءً بأثاث المجلس والزرابيّ المبثوثة في الصّالة والممر. وقد قرأنا، على جبين البوّابة الدّاخلية، جملة مكتوبة بالخطّ الكوفيّ: "هذا من فضل ربي". همس لي شادي حينها، ضاحكاً: "انظر. يسمّيه بيتاً! إنّه قصر. قصرٌ بناه من فضل ربّه، في شهور فقط، ودون أن يعرف أحد. هو الّذي فرّ من صنعاء، إثر سقوطها، حافي القدمين!".

ودخلنا المجلس لتستقبلنا سفرة غاصّة، فيها ما يكفي لإطعام طابور طويل من الفقراء. جلس الفندم على رأسها، وعلى يمينه ابنه البكر. مراهق ممتلئ، ترتسم على ملامحه البلادة بجلاء. وكان، بسبب العمليّة الجراحيّة، لا يستقرّ في جلسته. وظلّ حديثه، طوال الوقت، حصراً على معاذ. يسأله عن سير العمل بفترة غيابه، وعن أوضاع وتعيينات ضبّاط لم أكن أعرفهم.

بعد أن انتهينا، غمس إصبعيه بجيب قميصه واجتذب مئتي ريال سعوديّ. ناولها معاذ، قائلاً: "خزّنِ أنت والشباب، واستعدّوا لعمل كثيف ينتظركم في الأيّام القادمة. كونوا على الأهبة". وودّعنا.

وحين خرجنا، وجدنا أن عبداللطيف قد عبّأ، مع مجموعة من المرافقين، الصندوق الخلفيّ للسيّارة بالأجهزة الجديدة. وانتظرَنا إلى أن دنونا منه وأخبرنا أن أخاه قد أمره بالبقاء بالبيت لفترة، لمعاونته ببعض الشؤون.

ومنذ عودتنا للعمل حتى نومنا، ظلّ الفندم هو موضوع نقاشنا. تحدّث شادي، بصراحة ودونما مواربات، عمّا وجدناها من أُبّهة. وأخذ يشكّك من إمكانيّة إحداث نصرٍ في ظلّ قيادة كهذه، تشيّد هناءتها على أنقاض شعبها. بينما حرص زين العابدين وقحطان على انتقاء لهجة وسط في النّقد. وعلى النّقيض من شادي، هَبّ معاذ يُدافع عن الفندم ببسالة، انطلاقاً من قناعته بأنّ من شأن هذا التّهامس تقويض ثقة الجنديّ بالقائد، وبالتّالي ضياع القضيّة.

أمّا صابر فقد اكتفى، كعادته حين يتورّط بنقاشات كهذه، بترديد جملته الأثيرة: "كلّهم كلاب".

وظللتُ أنا، المهووس بالنّقاشات المحتدمة، أشعل، طوال تلك الساعات، أوار هذا النّقاش كلّما أوشك أن يخبو. وبين الفينة والأخرى، أحدّق، بشيءٍ من الامتنان، بالمروحة الجديدة الّتي مضت تدور بتناسق رشيق وبصمت مطبق، مقيلةً عنّا عناء رفع أصواتنا على النّحو الّذي كانت تقسرنا عليه أختها الهالكة.

وانهمكت، منذ اليوم التالي، في عمل شاق. توجّب عليّ تفتيش كلّ مواقف الجيش الّتي تمّ رفعها حتى ذلك الحين، والتنقيب عن الخسائر البشريّة والماديّة بكلّ موقف على حدة، وبدقّة صارمة.

كانت الخسائر البشرية أكثر من الماديّة بكثير. وقد قسّمت سجلّها لخمس فئات: الشهداء، الجرحى، الأسرى، المختطفين، والوفيّات. وشرعت في العمل بحماس لم أعهده.

خلال عشرة أيّام، تمكّنت من إعداد السِجلّ الّذي يضمّ كلّ أسماء شهداء وجرحى الجيش والمقاومة الشعبيّة الّذين حصدتهم الحرب حتى تلك اللحظة، وكانوا بالآلاف.

في الأيّام الأولى من عملي عليه، كنت أعاني كثيراً، نفسيّاً. كلّ اسم كان يمثُل أمامي بشخصه. أفكّر بنمط الحياة الّتي عاشها، بآماله التي أردَته الحرب وما تزال مخبوءة بين جوانحه. أفكّر في أهله وذويه. كيف ستغدو حياتهم وقد مضغت الحرب معيلهم أو ابنهم؟ أتخيّل أولاده الصغار، وقد باتوا مكشوفين للحرب، دونما غطاء.

أتساءل عن ذلك الزّمن اليسير السابق لآخر أنفاسه: هل تألّم فيه كثيراً؟ هل نظر إلى السماء حينها وتمنّى أمنيةً ما؟ وما عساها تكون أمنية روح تدرك أنّها تغادر الآن لحياة أخرى؟!

أمّا إن كان الاسم لجريح، فتأتي الأسئلة من نوع: هل شفي يا ترى، أم أن الجرح خلّف فيه إعاقة دائمة؟ وإذا ما كان قد صار معاقاً، كيف عساه يقضي ما بقي من سنوات عمره؟ ولو أنّ القضية التي ناضل من أجلها فشلت أو لو نجحت ولم تبادله الوفاء، هل سيظلّ

بعدها، وبطول خط حياته، محافظاً على إيمانه؟ أم سترافقه النّدامة على ما أبداها يوماً من بسالة لم تفضِ لشيء سوى حبسه في جسده؟ وإن كان قد شفي، أعساه أقلع عن الحرب واخترع لنفسه مسلكاً آخراً، أم عاد لجبهات القتال؟

لكن الأمر لم يدم طويلاً على هذا المنوال. فما انفكّت هذه الحساسيّة تخبو مع كلّ اسم كنت أضيفه. ولم أنتبه أبداً لهذا الخفوت المستمرّ لضراوة الأسئلة والخيالات. فقط وأنا أوشك على الانتهاء، انتبهت لكون ذلك الوخز الشرس الّذي عانيته في كتابتي الأسماء الأولى، لم أعد أشعر به وأنا أخُطّ هذه الأخيرة. وفكّرت حينها أن من أخطر ما تفعله بنا الحروب أنّها تجعلنا نعتاد التشوّهات، بالامتصاص التدريجيّ لحساسيّتنا تجاهها، دون أن نتمكّن من ملاحظة ذلك إلّا وقد غيّرتنا تماماً، بتقطير شيطانيّ، وبآليّة تقوم على فاعليّة التكرار.

ولم تمضِ بضعة أيّامٍ أخرى إلّا وقد انتهيت من باقي السجلّات. وكتعبير عن التقدير_ الأمر الّذي كان نادر الحدوث_ منحني الفندم مكافأة ماليّة. أرسلت لجدّي نصفها وأبقيت لي نصفها. ليغدو عملي، بعد ذلك، مقصوراً على إضافة ما يفِد إلينا من أسماء ضمن المواقف اليوميّة للمناطق العسكريّة والجبهات. وكذلك حصر الخسائر الماديّة في سجلّات خاصّة. ولم يكن هذا الإجراء يستغرق مني أكثر من ساعة في ختام كلّ ليلة.

2

لم يكن العمل هو أكثر ما يرهقنا، رغم أنّه كان حقيقاً بذلك. بل ظروف نومنا! مُذ جئتُ إلى القصر، كان أحد الفرشين اللذَين تحتويهما غرفة الأرشيف من نصيبي، أمّا الآخر فلشادي. بالنّسبة لمعاذ، كان ينام بغرفة العمل، بالمكان نفسه الذي يقضي فيه كامل ساعات الدوام، يتشاركها معه صابر. أمّا قحطان وزين العابدين، فلم يجدا لهما مكاناً سوى تلك المساحة المقتضبة تحت سلّم المبنى.

ولم يكن عبداللطيف ضمن هذا التوزيع. كان يمضي بنهاية كلّ ليلة لبيت الفندم، ينام هناك ويعود إلينا صباحاً.

وكون العمل يمتد لقرابة الفجر من كلّ ليلة ويبدأ منذ التاسعة صباحاً، لم نكن نحظى بالقسط الكافي من النّوم. لكنّا مضينا في اعتياد الأمر. غير أنّ هذه الحال السيئة، أوشكت تزداد سوءاً. لقد عاد عبداللطيف، بعد غياب دام نحو عشرين يوماً، ليفاجئنا بقراره النّوم معنا. أراد أن يكون ثالثنا أنا وشادي.

بتلك الليلة، كان قد نشب عراك لفظيّ بين شادي من جهة، وعبداللطيف وقحطان من أخرى. بشأن الزّامل. شادي يزدريه ويعتبره محض صخب، بينما الآخران يدافعان عنه ويعتبرانه فنّاً شعبيّاً أصيلاً. وقد انتهينا من عملنا ولم ينتهِ العراك بعد.

وحين مضيت وشادي إلى غرفتنا، بادرني ما أن دلفنا: "أرأيت؟ أرأيت قحطان؟ إنّه يسمّي هذا الهراء فنّاً. هذا الخليط المقرف من الزعيق والتجشؤات، يسمّيه فنّاً! لم أهتمّ وأنا أستمع هذا التوصيف من البرميل عبد اللطيف، لكن من قحطان!". "اهدأ. ما بك؟ لا أرى مبرراً لثورتك هذه. إنّها وجهات نظر. لا تنسَ أنّ لكلٍّ ذائقته" خاطبتُه. "نعم، هذه هي. الذّائقة يا صديقي، الذّائقة. لقد مضى الانقلابيّون يعبثون بها. وها هم هؤلاء يعينونهم على ذلك. إنّهم يفهمون الأمر هكذا: لأنّ الحوثيين يزوملون، علينا مقارعتهم بالزّوامل. أولئك إذاً يحددون الطريق، ونحن ننساق وراءهم. ما يثير جنوني أن لدينا مخزون أغانٍ وطنيّة يغنينا حتى عن إنتاج المزيد منها، لماذا يهملونها لصالح هذا التشوّه؟! ما بالها قصائد الفضول الوطنيّة تلك، المغنّاة بحنجرة أيوب طارش؟ أغاني أبو بكر سالم، ومُحَمَّد مرشد ناجي، وغيرهم من قامات الفنّ اليمنيّ الأصيل؟ أقسم لأغنية واحدة منها تبثّ في دمي من الحماسة، من الانتماء لهذا البلد، ما يكفي لأتنشّق ترابه ملء روحي. أمّا أن يَخُضَّ أحدهم مجموعة حصىً في تنكة ويريد إقناعي بأنّ ضجيجها فنّ، فهذا عين الجنون". ولم نمضِ أبعد من هذا. ارتمينا كلّ على فراشه، بانتظار النّوم.

لكن عبداللطيف فاجأنا بمجيئه بعد لحظات. مدّ فراشه في المساحة المتبقية بين فرشَينا، وارتمى فوقه كفقمة. ولم يعنِ لنا الأمر شيئاً، حتّى نام.

لم تكن هذه المرّة الأولى الّتي أتشارك فيها غرفة نومي مع آخر يشخِّر. عانيت من هذه المعضلة زمناً مع جدّي. لكنّها المرّة الأولى الّتي أسمع فيها شخيراً كهذا. بدا الأمر كما لو أنّ رئتيه تُفرغ عاصفة هائلة تصبّ جام سطوتها تماماً على خيشومه بنيّة اقتلاعه، عبر أنفه، لأرضيّة الغرفة.

كان شكلاً من الإعجاز يتباهى به أنف هذا الرجل. تلك الحيلة البديهية والسهلة التي كنت ألجأ إليها دوماً في حال كهذه، بأن أطوي المخدّة على رأسي وأضغطها على أذنيّ، بدت أشبه بمزحة سخيفة. وبالعجز نفسه، لم تستطع سمّاعات هاتف شادي أن تحجب عنه هذا الضجيج، حتى وقد أوصل صوتها لأقصاه.

أشعلنا الضوء، وتشاركنا مهمّة إيقاظه. "لا عجب، إذاً، أن الزوامل تطربه!" قال شادي، بيأس، وهو يركله كوسيلة أخيرة لاجتذابه من أعماق غيبوبته.

كان مستلقياً على ظهره. وقد فكّرنا بأنّ إيقاظه ليتحوّل للنّوم على جنبه ربّما يجدي في حلّ هذه الأزمة. وبالفعل، كفّ عن الشخير ما أن عدّل من استلقائه. ولكن لم تكد تمضي بضع دقائق استردّينا فيها بعض أنفاسنا المهدودة، إلّا وفاجأنا بما لا يقلّ كارثيّة.

أخذ، بين الفينة والأخرى، يعضّ على أسنانه، زالقاً أحد فكّيه على الآخر، مصدراً صوتاً حادّاً ومتطاولاً كالّذي لانزلاق سندان على سطحٍ أملسٍ من الفولاذ. ليبدو الأمر كما لو أننا نحاول النوم بورشة خِراطة بساعة الذّروة.

وبعد أن استنفدنا كافّة وسائلنا لإيقاف آلة الضجيج هذه، خرجنا من الغرفة، لنمضغ حنقنا، بصمت، في الساحة.

جلسنا على المصطبّة المحيطة بالمبنى وأرخينا ظهرينا إلى جداره. أشعل شادي سيجارة أخذ يمتصّها بوقار فيلسوف في أغزر لحظاته تجلياً، بينما ألقيت أنا برأسي للوراء، ملصقاً عينيّ بالسّديم السماويّ، ومغالباً ذلك الشعور الثقيل من الإحباط الّذي كان قد كسا دواخلي بالسخام.

كانت آخر ساعات اللّيل. السكون طاغٍ بنحوٍ لم أشهده بهذه المدينة من قبل. وأخذ جسدي يتناغم وهذا الهدوء الجليل. التقت أجفاني وبدأ يتسلّقني خدر لذيذ. وما لبثتُ أن امتلأتُ سكينة. لأبتسم بعدها بشيء من الخجل وأنا أفكّر بما للشؤون الصغيرة عليّ من سطوة. فأن يصرّح امرؤٌ بأنّ أكثر لحظاته إحباطاً، خلال ما يزيد على سنتين من الحرب، كانت تلك الّتي عجز فيها عن النوم بسبب شخير واحد من زملائه، بدا لي هذا مدعاة للسخرية، بل للاستهجان.

لكن ذاكرتي سرعان ما أسعفتني بقصّة كنت قرأتها بكتاب لا أتذكر اسمه، وجدت بها بعض المساندة. يحكي فيها ضابط ألمانيّ عن فصول من مشاركته بالحرب العالمية الثانية.

كان قائد كتيبة قضت شطراً من زمن الحرب في ثلج روسيا، في شحّ حادّ بالإمكانات الصحيّة. وكان من تداعيات هذا الطقس العدائيّ البرودة، أن أصيب الجميع بإسهال حادٍّ حصد ثلاثة أرباع الكتيبة في غضون شهر.

يقول الضابط إنّه، في كلّ تلك الظروف القاتلة، لم يكن أكثر ما نال من أعصابه عجزه عن إيقاف هذه الجائحة أو الحدّ منها، بل ذلك الجنديّ الّذي ما انفكّ يأتيه كلّ يوم، طوال تلك المدّة، يشكو إليه تقززه من زميله الّذي يصرّ، في كلّ وجبة غذائيّة يتناولانها، على مضغ لقيماته بصوت مسموع! يقول إنّ هذا التفصيل الصغير، بتكراره اليوميّ، كان الأشدّ فتكاً بأعصابه من كلّ ما شهدها بتلك الحرب من مآسٍ.

ولم يسمح لي شادي بالاستمرار في معراجي أبعد من ذلك. اجتذبني طالباً المضيّ معه. "إلى أين؟!" سألته. "لديّ مكان ننام فيه. هيا. قم لنجلب فُرُشنا".

لم أكن قد انتبهت، من قبل، لتلك الأبنية المصمّمة كأبراج مراقبة وحراسة، والّتي على كلّ زاوية من السور واحد منها. فرحت كثيراً. وسألته لماذا لم يفكروا منذ البداية بأن يتوزعوها للنّوم طالما وهي متاحة. أجابني، باقتضاب: "ستعرف فور دخولنا".

ولما وصلنا لأحدها، وقبل أن يدفع الباب لندخل، استقبلنا طنين ملحوظ. أردت سؤاله عن الأمر، غير أنّ الباب سبقني وانفتح على الإجابة: لم تكن هذه الغرفة المستديرة سوى خليّة بعوضٍ عملاقة، وافرة النشاط! تسمّرت لوهلة، بينما أطلق هو قهقهة قبل أن يسألني، غامزاً: عرفت السبب أم لا؟

انتكستُ وأردت العودة لمصطبّتي. لكنه أمسكني من ذراعي وأخبرني أنّ الأمر سيغدو أقلّ سوءاً حينما ندخل ونطفئ الإضاءة. ودخلنا.

البرج يتكوّن من طابقين. يصعد الجنديّ المكلّف بالمراقبة للطابق الثاني بسلّم معدنيّ يلتفّ حول ماسورة ضخمة نابتة من الأرضيّة. لم تمهلني أسراب البعوض حتى لافتراش بطّانيتي. انقضّت عليّ وبدأتُ أهرش جسدي كمجذوم. لكنّها أخذت تغادرنا مرتفعةً نحو الطابق الثاني ما أن أطفأ شادي الإضاءة، ليعود، من ثمّ، للاستلقاء في الجانب المقابل لي. منبهاً إيّاي لتجاهل اعتراضات الجندي القائم على الحراسة فوقنا. وكان الإرهاق قد نال منّا، فابتلعنا النّوم من فوره.

غير أنّ ما لم نكن نعلمه أنّ نفراً من حرس القصر يتّخذون من هذا الطابق من البرج، والّذي تجاسرنا على اتخاذه غرفة نوم، مصلّىً لهم. وهو ما فُوجئنا به بعد نصف ساعة من نومنا. إذ صحوتُ بركلات خفافٍ تسددها على ساقي قامة مديدة ما انفكّت تردّد: صلاة، صلاة.

وحين جلست لأمسح عن عينيّ النّوم، كانت هذه المجموعة من الحرس، ما بين قائمٍ وراكعٍ وساجدٍ. ولأنّهم كانوا أشعلوا الضوء منذ زمن، كان جيش البعوض قد عاد لحربه، محققاً عدداً من الانتصارات وجدتُ آثارها مسطورة بالأجزاء المكشوفة من جسدي. وبعد أن أخذت وقتي من التململ والتحديق في اللاشيء، قمت بنيّة الذهاب للوضوء، مكابداً حنقاً هائلاً مكتوماً.

لكنّي باطأت خطوي إذ لحظت أنّ شادي ظلّ مستلقياً دون أدنى حراك، بالوقت الذي استمرّ ضابط أمن القصر، والّذي هذا لقائي الثاني به، بمحاولاته لإيقاظه. تلك المحاولات الّتي أخذت تزداد شراسةً كلّما أمعن صاحبنا في تغافله. إلى أن سدّد الضابط ركلة قويّة على فخذه جعلته ينتصب فجأةً كأنّما اجتذبته قوىً غير مرئيّة، ويردّ الركلة بمثلها، ضاجّاً بالكثير من الشتائم.

كان فارق الحجم مهولاً. أمسكه ضابط الأمن من خلف رأسه كمن يمسك بشيء، ومضى به صوب الزنزانة. متوعّداً بأنّه يعرف جيّداً كيف يؤدّب كائنات كهذه.

ولعجزي عن إيقاف هذا الإجراء، فكّرت بإبلاغ معاذ، علّه يتوسّط ويحلّ المسألة. لكنّي سرعان ما عدلت عن ذلك حينما تذكّرت أنّه يصلّي الفجر بغرفة العمل سريعاً قبل أن يأوي، مهدوداً، إلى النّوم. جلست، مستسلماً، بمكاني. لم أذهب لأتوضأ. انتظرت الضابط إلى أن أكمل صلاته، وطلبت منه السماح لي بزيارة زميلي. منحني الإذن بإشارة من يده. فحملت الأغطية وانطلقت.

في الطريق، تساءلت عن الحاجة التي اقتضت وجود زنازين في القصر الجمهوريّ. كنت أدرك، بالطّبع، أنّه قد فقد صفته هذه منذ الانقلاب. وأنّه غدا محض مبنىً تابع للجيش. وكان من شأن هذا تبديد استغرابي من وجود زنازين هنا. لكن ذاكرتي همست لي بعدد من القصص كنت قرأتها، قبل هذه الحرب، لمختطفين تمّ تعذيبهم داخل

غرف في القصر الجمهوري بصنعاء، ما يعني أنّ احتواء هذه القصور على زنازين، كان تقليداً أصيلاً وراسخاً في دولتنا.

وتذكرت أيضاً تقريراً صحفيّاً تضمّن، حينها، جرداً للأسلحة المكدّسة في القصر نفسه، أنواعها وأعدادها.

وفكّرت كم أن حكّامنا بائسون، مسكونون بالخوف، ومسجونون في حدوده. الخوف الّذي يدفعهم لتكديس ترسانات من الأسلحة في بيوتهم المبثوثة بطول البلاد وعرضها، ولبناء وتشييد السجون حتى بالأماكن التي لا تبعد عن مضاجعهم سوى بضعة أمتار.

ظلّ عقلي يمضغ هذه الاستنتاجات، يؤججه ما كنت أشعر به من غضب ربّما لم يكن دافعه ما حدث آنفاً بقدر ما كنت أعانيه من تراكمات السهر، إلى أن وصلت الزنزانة. فتح لي الحارس بابها، ودخلتُ.

وجدتُ شادي نزيلها الوحيد، جالساً في الزاوية التي يلقي عليها الغبش بخيال ضوئه من الفتحة الضيّقة الوحيدة الموجودة تحت السّقف بقليل. متكوّراً كمن يقضمه المغص.

كان قد بكى بمرارة. عرفت ذلك من عجزه التامّ عن كتمان شهقاته. استغربت هذه المبالغة. صحيح أن من الصعب احتمال السجن، لأيّ سبب كان ولأيّة مدّة، إلّا أنّ ذلك، سيما بقضية كهذه، لا يستدعي كلّ هذا النّشيج.

أفلتُّ الأغطية ومضيتُ إليه. جلست بجانبه وهمست له، وأنا أربت على كتفه، بأن الأمور ستكون بخير. سنبلغ الفندم وهو بالتأكيد

سيحلّ هذا الإشكال. ليردّ بصوت تمزّقه الشهقات: "لا بأس. ليست هذه المرّة الأولى الّتي أدخل بها السجن".

كان صوته حزيناً ونائياً. كأنّما يجرّه من أقاصي القهر لا من حنجرته. حيّرني ردّه هذا، غير أنّي لم أنبس. وبعد دقائق صمت، أنشأ يقصّ عليّ بوحاً مؤلماً.

بأحد أيّامه الدراسيّة بصنعاء، وهو في طريق عودته من الجامعة، وقد غدا من البيت بمرمى حجر، فوجئ بطقمٍ يقف حذوه في صهيلٍ مفزع. ترجّل عنه أحدهم، مقترباً نحوه. وسرعان ما تقافز خلفه الباقون. كلّهم مدججون، كأنّما في جبهة حرب.

اجتذبه الرجل من تلابيبه وصفعه، دون أن يفوه له بحرف. وعلى الفور، أمر مرافقيه بتكتيفه وأخذه إلى الطقم. حاول شادي التملّص، لكنّه تلقّى ضربة على قذاله أفقدته الوعي فوراً.

حين استعاد وعيه، وجد نفسه بسجن لا يعلم عنه شيئاً، مُكدّساً في زنزانة يُطلَق عليها "الضغاطة". علبة خرسانيّة بالكاد تكفي أبعادها للقرفصة. تغرس في المفاصل جحيماً حقيقيّاً منذ ساعات الاحتجاز الأولى.

لا يعرف كم قضى فيها من الأيّام قبل أن يخرجوه لزنزانة متسعة بعض الشيء، ليمارسوا عليه ما بقي بحوزتهم من أنماط التعذيب. الصفع، الركل، الجلد، التجويع، التعليق، قلع الأظافر، إطفاء السجائر بأنحاء من الجسد، وغيرها. ولم يخضعوه أبداً لأيّ تحقيق، الأمر الّذي كان يفتك بعقله بقدر ما تفتك بجسده عذاباتهم.

فقط وهم يخرجونه من السجن، وبعد أن أخبروه أنّه لو بقي، بعد، بصنعاء ليوم واحد فإنّهم سيرجعونه لزنزانته، همس له أحدهم: "مرتضى يبلّغك تحيّته"، ليفهم إذّاك كلّ شيء!

وصل شادي إلى هنا وتوقّف. بتلك اللحظات، خِلتُني أسمع من حنجرته طقطقة كالّتي لغُصنٍ تلعقه ألسنة اللّهب. سألته من هذا المرتضى الّذي أفصح له اسمه عن كلّ شيء. صمت لوهلة ثمّ حشرج: "إنّه زوج زينب!". ولم تُجلِني إجابته هذه سوى لمزيد من الحيرة. استحالت جمجمتي لمحض استفهام عمّن تكون زينب أيضاً، لكنّي كابدتُ فضولي. إلى أن أجاب من تلقائه.

إنّها زميلته. أُعجِبا ببعضهما منذ أوّل لقاء. ولم يكد يمضي الفصل الأوّل من سنتهم الجامعيّة الأولى إلّا وقد نمت علاقتهما وأثمرت حُبّاً. ومن حينها، مضيا ينسجان أحلامهما المستقبليّة، ابتداءً بحلم اجتماعهما تحت سقف واحد. ثلاث سنوات خُضر، مرّت كلمح البصر. ميلهما الفطريّ لخوض الحياة باندفاع وحيويّة لم يجعل من سنوات حبّهما الثلاث تلك تمضي مُثقلة بتناهيد الأشواق وصبابات الانتظار. اتخذا من حبّهما دافعاً للإنجاز واستمراريّة التفوّق. ولم يكونا معزولَين تماماً عن ما يدور خارج أسوار الجامعة، تحت تحليقاتهما الرومنسيّة. كانا يدركان ما تعانيه البلاد من اضطرابات، وبالتالي ما ينطوي عليها مستقبلهما من تحدّيات. ولطالما تحدّثا مطوّلاً بهذه الشؤون وهندسا خطواتهما عن إدراك لها.

وفي كلّ ذلك، لم يتوقفا يوماً للتمعّن في اسميهما كاملَين. كان هو شادي فحسب، وهي زينب فحسب. أليست وظيفة الأسماء فقط إدراك المسمّيات؟ بمنحها مقطعاً صوتيّاً خاصّاً لتسهيل التواصل؟ يكفي إذاً أنّه شادي وأنّها زينب.

فقط حين سقطت صنعاء بيد الحوثيين، أصبحت للأسماء حكاية أخرى. حكاية أُجبرا على الإنصات إليها باستسلام من يستمع نعوة تطلّعاته رأساً من شِفاه الله. لم تعد الأسماء محض مقاطع صوتيّة لغرض المناداة، بل مقياساً للمكانة والفاعليّة وشكل الوجود.

فجأة، انفجرت بينهما حقيقة أنّها تنحدر من السُلالة، انفجاراً كان من القوّة أن شطر قدرهما لنصفين ومضى بكلّ منهما لقُطب كونيّ معاكس.

كانا ببداية عامهما الجامعيّ الأخير، حين التقيا بأحد مدرجات الجامعة صباح يوم كان بالنّسبة له عاديّاً، قبل أن يلمح بعينيها دموعاً توشك أن تطفر. انتحى بها جانباً وسألها عن الأمر. "أبو تراب جاء بالأمس، ليخطبني"، وارتعشت شفتاها وهَمَت عيناها. سألها من أبو تراب؟! فأجابته، ناشجة، بأنّه ابن عمّها. مرتضى. رجل أمضى حياته على منوال واحد :السُكر والعربدة. ولكن لأنه من السلالة، تغيّر مصيره تماماً بعد الانقلاب. جعله الحوثيّون أحد مشرفيهم على العاصمة ومنحوه على منطقته ما يشبه سلطة مطلقة. في غضون أسابيع، صار من كبار مُلّاك الأراضي والعقارات. وحين فكّر بالزواج، قرر أن تكون زينب زوجته.

مضت تسرد له تفاصيل هذا الطارئ، وظلّ يستمع إليها. إلى أن استحالت دماؤه لمحض جحيم. "وإلى أين وصل الأمر؟!" سألها. "لقد رفضتُ. لكن أهلي موافقون، ويضغطون عليّ". "لا ترضخي يا زينب، أرجوكِ. لن أسمح بحدوث هذا. اليوم سأخبر والدي ليأتي إلى أبيكِ ويخطبكِ لي. مهما حدث، لن تكوني لسواي" قال لها وتصنّع ابتسامة، ومضى.

غادر الكليّة من فوره. كان قد ارتجل لها هذا التطمين بدافعٍ من صدمته بما أخبرتْه ومن رغبته بتضميد أساها. لكنّه الآن، وهو في طريقه للبيت، بدأ يفكّر بواقعيّة ما أخبرها بأنه سيفعله. كيف سيمكنه، هو ابن الأسرة الفقيرة، التي يعولها والده بشق الأنفس، بما يتحصّل عليه من عمله كبائع متجوّل، كيف سيمكنه أن يبتدر أمراً بحجم الزواج؟! وفي ظرفٍ لا يزال فيه محض طالب يتلقّى من أبيه مصاريف دراسته كلّ صباح؟!

وصل إلى البيت تمضغه الحيرة ويمزّقه الأسى. عَبَرَ ضجّة إخوته الصغار إلى الغرفة التي تجمعهم للنّوم وأغلق على نفسه بابها. استلقى على فراشه محملقاً في السقف، يستمطره حلاًّ.

وكانت أمّه قد لمحت ارتباكه في دخوله. اقتحمت غرفته في قلق وسألته عمّا يغمّه. كان قد بلغ من الهشاشة حدّها الأقصى. انفجر باكياً وأخبرها بكلّ شيء. رقّت لحاله وهمست له بأن يطرح الأمر مساءً على أبيه، وأنّها ستسانده.

في المساء، وجميع العائلة متحلّقون حول صحن من الفول، تتجاذب أياديهم الأرغفة، لحظ الأب تبادلاً لنظرات متأهبة بين زوجته وابنه البكر. بعد تناولهم العشاء، بادرهم وسألهم عن الأمر. تطلّع شادي إلى أمّه. تملّى عينيها. استقى منهما ما يكفي من الشجاعة، وسرد لأبيه كامل القصّة.

لتلك اللحظة، كانت مخاوفه محصورة بالجانب المادّي. لكن الأب، بعد أن أنصت إليه تماماً، مضى يحدّثه، بعطفٍ، عن نوع آخر من الموانع: "اسمعني يا بنيّ، ليس لي بهذه الحياة سواك وإخوتك. وقد نذرت حياتي من أجلكم. لن أتوانى يوماً في عمل ما يجلب سعادتكم. ولقد حلمتُ كثيراً باليوم الذي سأراك فيه وإخوتك وقد صار لكلٍّ منكم بيته وأسرته. أتخيّلني بينكم، وأولادكم يضجّون من حولي، يملؤون دنياي حياة. صدّقني يا ولدي، وبغض النّظر عن سوء حالتنا المعيشيّة، لو كانت الفتاة من أسرة تماثلنا حالاً، لكنت سأذهب في الغد لأخطبها لك. أستطيع أن أتحصّل على التكاليف الّلازمة لذلك. أمّا وهي من أولئك، فذهابنا إليهم محكوم بالإخفاق. إنّهم لا يروننا سواسية. يحسبوننا من طينة وهم من أخرى، أعلى قيمة وقدراً. لطالما اعتبروا أنفسهم كذلك. ولقد باتوا الآن، بعد أن عادوا لحكمنا من جديد، أكثر صلفاً وتكبّراً. لا شك لديّ وفقاً لما أخبرتني، بأنّ الفتاة أيضاً تحبّك. لكن هذا ليس كافياً ليسير الأمر كما تشتهون. إن أراد أهلها تزويجها لابن عمّها، سيفعلون، ولو رغماً عنها. بل أنّهم ربّما لو علموا بأمركما، لسارعوا في إتمام ذلك".

انتهى من كلامه ليطفو الصمت على جوّ الغرفة. وقد عجزت عاطفته عن تمليس كلماته. ظلّ وقعها على شادي أشبه بضربات سلكٍ شائك. ازدرد حنجرته، ثمّ نبس: "أبي، أدرك جيّداً هذه المخاوف. لكنّي أعرف أيضاً أنّهم ليسوا جميعاً على ذات القناعة والممارسة".

مال الأب بنظره، ثبّته على زوجته لوهلة، ثمّ عاد إليه يحدّثه: "بالطّبع، ليسوا جميعاً كذلك. لكن ألم تقُل إنّهم قد وافقوا جميعاً على ابن عمّها؟! وأنّهم في سعي لإقناعها به؟! فكِّر إذاً يا بنيّ، فكّر. هل سيقبلون بك رغم ما ذكرتُ لك، فضلاً عن ما ذكرتها أنت ممّا بيننا وبينهم من فوارق المعيشة؟!".

كان منطقه صارماً، متيناً، وقاسياً. أطبق على عنق شادي ككمّاشة.

وبعد أن فقد الأخير ميزة المجادلة بالحجّة والمنطق، أطرق للأرضيّة، لينبس، بصوتٍ متهدِّج: "لكنّي أحبّها يا أبي. أحبّها. ولا أتصوّر حياتي بدونها". نشجت الأمّ. ران الصّمت قليلاً. ثمّ جاء صوت الأب: "حسناً إذاً. سأذهب في الغد لأخطبها لك".

اليوم التالي كان الجُمعة. لا دوام في الجامعة، ولا مجال ليرى حبيبته ويحدّثها. اتصل بها صباحاً، وأخبرها أن أباه سيأتيهم في المساء. فرحت. لكن ليس بما يكفي لتبديد نبرة الحزن في صوتها. أنهى الاتصال وعاد إلى وجومه، وجوم مترع بالترقُّب.

في صلاة العشاء، وقف الوالدان لصق بعضهما. أدّيا الصلاة في الجامع ذاته (بالقرب من بيت والد زينب)، وبالصّف الأوّل.

عقب الصلاة، بعد أن صافحه والد شادي وأخبره أنّه يريد محادثته بشأنٍ خاص، مال به لإحدى زوايا الجامع واستمع له بوجه لا يحمل أيّ تعبير، حتى انتهى. ثمّ تجعّدت ملامحه دفعة واحدة. بدا كعزيزٍ تلقّى لتوّه إهانة أمام جمع غفير. وأخذ يتقيّأ كلمات معجونة بالسخرية وبالوعيد: "سأغفر لك جرأتك هذه. تبدو ساذجاً بما يكفي لألّا تستوعب الواقع وتدرك الفروق. سأبتلع ما تفوّهت بها من سخافات. لكن على أن لا تتجرأ مرة أخرى على طلبٍ كهذا. أمّا ابنك، فأنا أعرف جيّداً كيف أؤدّبه!".

الجملة الأخيرة نالت تماماً من شكيمة والد شادي. ما حوته من نبرة تهديد، قفزت بخياله ليرى ابنه محمولاً على الأكتاف، قتيلاً، يُساق إلى المقبرة.

كان الحوثيّون قد انتهجوا من القوّة في تعاملهم ما جعل النّاس لا يستبعدون أن تنالهم منهم أقصى أذيّة، حتى التصفية الجسديّة، ولو لأسباب واهية، إن لم يكن بلا أسباب!

اختضّت أحشاؤه ذعراً. أمسك بالرأس المتكبّرة إزاءه، قبّلها من الجبين، طالباً الصّفح، ومعاهداً بأن ابنه لن يعترض "السيّدة" زينب مرّة أخرى ولو بكلمة.

"لا بأس. سأسامحه أيضاً. فقط لأننا الآن ببيت الله. لكن إن حدث غير ما عاهدتني عليه، فقد أعذر من أنذر". وقبل أن يستدير والد شادي ليغادر، استتبع الرجل، رافعاً سبابته، مؤنّباً: "الخيل لا تركبها الحمير!".

وبينما كان شادي ينتظر في البيت ما سيأتي به والده، دخل عليه الأخير بقامة عَقَفَها الذُلُّ. "قالوا يا ولدي: الخيل لا تركبها الحمير".

تلقّى من أبيه هذه الجملة ليدرك أنّ الأمر كان محالاً من بدايته، وأن ما كان يفكّر به سبباً قد يحول دون ارتباطه بحبيبته، والمتمثّل بالبَون المعيشيّ، هو الأبعد في جملة الأسباب.

وعلاوة على ألمه لاختناق حبّه، كان عليه أن يعاني أيضاً ما سببه لوالده من إذلال. أمّا الأب فقد صبّ جلّ اهتمامه ليلتها على إقناعه بنسيان الأمر وتحذيره من مغبّة أيّة محاولة قد يفكّر باجتراحها لمنع جريان الأقدار على سجيّتها: "أريدك أن لا تفكّر فقط في نفسك. فكّر بي أيضاً، بأمّك، وبإخوتك. إن حدث لك مكروه، سيحدث لنا جميعاً. وأنا كما ترى، بدأت أشيخ. ولا يخيفني ذلك. أثق أنّك، فيما لو غادرتُ أنا هذه الحياة، ستقوم لإخوتك ولأمّك مقامي. وها أنت على وشك التخرّج من الجامعة، لامعاً يشار إليك بالبنان. فأرجوك يا بنيّ، أرجوك: لا تفعل ما تكون عاقبته أن نُفجَع بك".

أدرك شادي ليلتها أن حُبّه قد ذوى، وأنّه لم يعد بوسعه سوى التزام وصايا أبيه. بكى كثيراً، ولم ينم. أكثر ما كان يشقّ عليه كيف ستكون زينب أمامه في الكليّة دون أن يتقدّم نحوها ويحدثها.

في الصباح، زحف إلى الكليّة زحفاً. كان صباحاً كئيباً، بشمس باهتة. وصل ليتفاجأ بغيابها. بردّة فعل غريزية، أخرج هاتفه ليتصل بها، يسألها عن حالها. وباللحظة التي وقعت عيناه على اسمها، تذكّر ما

ينبغي عليه التزامه. أعاد هاتفه لجيبه كمن يلتقم جمرة. وبعد محاضرتين كان فيهما محض جثّة لا تقلّ هموداً عن المقعد الجالسة عليه، عاد لبيته منتحباً.

ومضت الأيّام تتوالى دون أن يراها أو يسمع عنها شيئاً. إلى أن بلغه بيومٍ ما، كما كلّ زملائه، خبر زواجها. تزوّجت من ابن عمّها وانتهى الأمر. وأقنع نفسه بأن عليه منذ الآن تجاهل صوت قلبه وأن يقصر حياته على الاهتمام بأسرته. ومضى في دراسته دونما طارئ يُذكر. إلى اليوم الّذي دخل به السجن بذاك النّحو الدراميّ الفج.

حين خرج، علم من والديه أنّهما عرفا بأمر اختطافه يوم حدوثه. كان ثمّة من رأى وأبلغهما. وحين علما أن المسؤول عن ذلك هو زوج زينب، أدركا حقيقة الأمر. واستغرقا في محاولاتهما استعطاف والدها ليتدخل لإخراجه قرابة ثلاثة أشهر، قضاها ابنهما بين مخالب الجحيم وأنيابه.

وفي اليوم ذاته، يوم الإفراج، سافر إلى مأرب، مودّعاً صنعاء بما فيها من أهل وحبيبة وجامعة وأصدقاء.

انتهى من سرده وطفق يمسح بكمّه ندى عينيه. كان عمود الشمس، الذي اندلق منذ الغبش من النافذة الوحيدة في الزنزانة ليبدأ رحلته من أعلى الجدار المستندين إليه، قد استقرّ أمام قدميّ.

نظر إليّ وقد انفرجت سرائره بينما كنتُ قد استحلتُ لمحض غصّة. وإذ رأى منّي هذا التأثّر، أراد أن يخفف عنّي، بلهجة ممازحة: "أخبرتك بكلّ هذا لتدرك أنّي قد اعتدت الزنازين. فلا تبتئس عليّ.

صديقك بات صُلباً جدّاًا!". ثمّ، وبكل بساطة، لاذ بالنّوم! وبقيت أنا، محملقاً في عمود الشمس، أتساءل: "أيّة لعنة أصابتنا لنغدو هكذا، أهون من هذه الذرّات السّابحة في الفراغ؟ وليتنا كنا مثلها حتى، نسبح في النّور رغم هواننا. لكنّها عتمة لا يلوح لها شاطئ!".

وفي نحو الساعة العاشرة، تمّ الإفراج عن شادي. وبالتأكيد عنّي، أنا المسجون طوعاً.

كان الفندم قد علم بالأمر واتصل بضابط الأمن وأمره بالإفراج عنّا. وحين علم لاحقاً بالسبب الّذي أفضى لكلّ ذلك، اكتفى بأن أمر عبداللطيف بالعودة لدأبه السّابق. لتعود خارطة النّوم، من ثَمَّ، لما كانت عليه!

3

بعد حادثة شادي تلك، مرّت بنا فترة دونما طوارئ، فترة ما لبثت أن خُتِمَت بعودة الفندم ليرأس العمل بشكل مباشر، وفي دوام يوميّ كامل، جالباً لنا عملاً إضافيّاً هو، وفقاً للائحة مهام وحدات الجيش، ضمن اختصاص وحدة أخرى: صار علينا تجهيز قاعدة بيانات شاملة لُمنتسبي القوّات المسلّحة.

إلى تلك اللحظة، وبعد سنتين من تأسيس الجيش، لم يكن ثمّة قاعدة بيانات رسميّة، ثابتة، وشاملة لأفراده! وكان من شأن ذلك ضياع الكثير من الحقوق وإحداث الكثير من البلبلة.

كان ثمّة ثلاثة أسباب متداولة، يُعزى إليها هذا الإهمال. أحدها، تسوقه القيادة، يقول أنّما هذا الجيش وليد لحظته. ابتدأ من الصّفر وفي ظرف حرب. وبالتّالي فإن هذه الاختلالات شؤون طبيعيّة سيتكفّل الزّمن لا شكّ بمعالجتها.

ولأنّ هذا السبب ظلّ قاصراً عن إقناع الجنود، فقد توصّلوا، بدورهم، لسببين: الأوّل ألقوه على القيادات. حيث كان هذا الإهمال يعود بالكثير من الأموال، بطريقةٍ ما، لجيوب الكثير منهم. لقد ظلّ بمقدورهم دسّ ما شاؤوا من الأسماء الوهميّة في كشوفات الرواتب، الكشوفات الّتي كانت تُرفع للّجان الماليّة للتحالف بكلّ عملية صرف،

من كلّ قائد وحدة على حِدة، ودونما أيّة رقابة. وبالطّبع، كانت رواتب هذه الأسماء تعود لمقترفيها.

أمّا الثّاني، فيتعلّق بالتحالف. بدأبه، هكذا مضى الجنود يحللون، على إبقاء زمام الأمر بيده. حتى في شأن بسيط كهذا، ظلّت عمليّة صرف الرواتب رهن لجانه هو، مُعطّلاً بذلك عدداً من دوائر الجيش المعنيّة بهذا الشّأن، بل والكثير من صلاحيّات الحكومة ككلّ.

وانطلاقاً من كثافة اللغط الّذي كان هذا الإشكال قد أثاره، نزل قرار إعداد قاعدة بيانات رسميّة لأفراد للجيش، القرار الّذي كان تأخّر لحدٍّ مخجل، على كلّ الجنود كبُشرى تدعو للاحتفال. ويمكنني الجزم هنا، أنّ صابر كان من أكثرهم ابتهاجاً.

ببداية التحاقه بالجيش، كان ضمن كتيبة عسكريّة تمّ تكليفها بأداء مهام قتاليّة في نِهم. ونظراً لما وصفه هو سوء حظ، كان اسمه من أكثر الأسماء سقوطاً من كشوفات الرواتب. ولأنّه يعيل أسرة كبيرة، كاد هذا الأمر يصيبه بالجنون. وكان أكثر ما يفتك بتصَبُّره، أنّه حين ينزل من الجبهة للراحة قليلاً في المدينة، يجد أنّ هذه المشكلة، بالنّسبة لمنتسبي الجيش من العاملين في وظائف مكتبيّة، تكاد تكون معدومة. وذلك لأن الكشوفات يتمّ رفعها من خلالهم، وبالتالي ظلّ بوسعهم التأكّد من صمود أسمائهم في كلّ مرّة. وهذا ما دفعه لاحقاً لمغادرة الجبهة، مستخدماً علاقاته ليتمّ نقله من وحدته القتاليّة لهذه الإداريّة.

ورغم أن اسمه عزف من حينها عن السقوط، إلّا أن سروره لهذا الإجراء كان كبيراً، ربّما انطلاقاً من شعوره الكثيف بحجم المشكلة الّتي

لطالما اكتوى بها ولا تزال تقع على الكثير من أمثاله، وربّما من تلك الحاجة الّتي ظلّت طموحاً لأغلب الجنود، بأن يشهدوا من القيادة سعياً جادّاً لتحقيق أكبر قدر من الاستقلاليّة عن التحالف، وفقاً لإمكانات الواقع بالطّبع. كان هذا التطلّع منهم حقيقيّاً وصادقاً، ينطلق من حسٍّ وطنيٍّ صِرف.

وابتدأنا العمل على ذلك. في كلّ يوم كانت تصلنا العديد من الكشوفات من مختلف الوحدات العسكريّة، نستغرق جُلّ دوامنا في ترتيبها وتبويبها وأرشفتها. وقد كنّا، أنا وعبداللطيف وزين العابدين، نحن المكلّفين من الفندم بإنجاز هذا العمل، تحت إشرافه الشخصيّ. في حين انهمك باقي الفريق في أداء المهام المعتادة.

ولأنّ الفندم وعدنا بأنّه، إذا ما أنجزنا مهمّتنا هذه بوقتها المحدد، سيعمل على ترقيتنا لرُتَب متقدّمة، فقد انطلقنا بها بحماس كبير. وخلال أسبوعين، تمكنّا من إتمامها.

وبالفعل، قدّم مذكّرة لرئاسة الأركان يطلب فيها ترقيتنا، وتمّت الموافقة. لأجدني، بعد أيّام، أتقاضى من اللجنة الماليّة، الّتي هي يمنيّة للمرّة الأولى، راتب ضابط في الجيش، أنا الّذي لم تكن مضت على انخراطي في السلك العسكريّ سوى بضعة أشهُر!

في ذلك اليوم، يوم تقاضينا رواتبنا، حدثت مشادّة بين الفندم ومعاذ. وذلك بعد أن استلم الأوّل، أمامنا جميعاً، رواتب ما يزيد عن العشرين اسم لم يكن لها أيّما وجود سوى في الكشف الّذي أعدّه هو.

ورغم أن هذا كان فعلاً صادماً لنا جميعاً، إلّا أننا لم نمتلك ما يكفي من الجرأة للاعتراض. وحده معاذ تجرّأ على ذلك.

وقف أمام اللجنة، بالقرب من الفندم المشغول حينها بتحسس رُزَم الأموال، مخاطباً أعضاءها، بحزنٍ ولكن بحزم: "هذه الأسماء لا وجود لها. تعرفون ذلك. كيف تصرفون رواتب لمن لا وجود له؟!"، ودون أن ينتظر منهم جواباً، التفت، مخاطباً الفندم: "كيف تقبل على نفسك أن تأخذ مالاً حراماً؟!". ليقف الأخير، وقد أطلّ الشيطان من عينيه، ضارباً الطاولة بكفه، صارخاً في معاذ يأمره بالخروج، مُذيّلاً صراخه: "بالأمر العسكريّ!".

وفقط حين خرج معاذ، غمغم شادي: "لن تصلح هذه البلاد أبداً". ليلقى على الفور ما لقيه السّابق. وبقيت أنا وقحطان وزين العابدين وعبداللطيف. يغشانا صمت ثقيل، ونتابع بأعيننا اللجنة وهم يلملمون أوراقهم وحقائبهم للمغادرة.

ولَكَم أكبرتُ معاذ لشجاعته، وتمنيت لو كانت وقفته تلك لي. ورغم أنّي شعرت داخلي ببعض الوخز لعجزي التامّ عن مساندته، إلّا أنّي سرعان ما اصطلحت مع نفسي. ليس فقط لأنّي كنت أشعر تجاه الفندم ببعض الامتنان لترقيته لي، بل أيضاً لأنّي لم أكن تصوّرتُني يوماً أؤدّي دور البطل. لقد عشت في غنىً عن ذلك، وبمنأىً عنه.

ورغم كمية الحنق الّتي أبداها الفندم ذلك اليوم تجاه معاذ وشادي، وتلويحه بطردهما، إلّا أنّه حين أتى اليوم التالي، لم يعُد لذكر الأمر.

ومن يومها، ولنحو شهرٍ تالٍ، عادت شؤون العمل لما كانت عليه قبل تكليفنا بالمهمّة. ولأن عملي لم يكن يستهلك مني سوى القليل من الوقت والجهد، ألفيتُني فريسة للفراغ. يسوطني الروتين ويخنقني الملل. حتى أن باقي الفريق، رغم كثافة أعمالهم، بدأوا يتململون. إلى تلك الغداة الّتي وجدنا أنفسنا أمام قضيّة محيّرة.

4

كان يوماً، في بدايته، عاديّاً. استيقظنا قرابة الثامنة صباحاً، وتناولنا إفطارنا بكسل كبير. لنشهد بعد ذلك المناوشة الّتي اعتدناها كلّ صباح، بين شادي وعبداللطيف. الأوّل يريد افتتاح اليوم بالنّشيد الوطنيّ والآخر يريده بزامل. وبينما كان معاذ يحسم هذا الخلاف لصالح شادي، دلف إلينا مجموعة من الضباط والجنود لم يسبق لنا رؤيتهم في القصر.

سألنا أحدهم، دونما مقدّمات، وبحزم: "أين زين العابدين؟!". كان هذا الأخير يتهيّأ حينها خلف مكتبه، لابتداء الدوام. وقف، مرتبكاً: "أنا هو". ليقتادوه على الفور، ماضين به خارجاً.

كان الموقف خاطفاً، ولم نستطع استيعابه تماماً. "إنّهم ضباط الاستخبارات العسكريّة. أنا أعرفهم. لا بدّ وأن شيئاً خطيراً قد حدث"، نبس معاذ، مُطرقاً إلى الطاولة أمامه. ليخيّم على الجميع، بعدها، صمت سميك، مشبع بالأسئلة.

بعد نحو ساعة، جاءنا الفندم. دعانا لاجتماع في غرفة الأرشيف. كان شديد الارتباك. وقبل أن نجلس حتى على مقاعدنا، زمجر: "لو ثبت أنّ البرقيّة سُرّبت من هنا بالفعل، ستكون كارثة عليكم جميعاً". لم نعرف ما الّذي يقصده بالتحديد، فبقينا فاغري الأفواه، متأهبين، ننتظر ما سيفصح عنه بعد.

قبل نحو ثلاثة أسابيع من الآن، بعد أن تمّت عمليّة صرف الرواتب، وصلتنا برقيّة موجّهة من قائد القوّات المشتركة في التحالف إلى مكتب رئيس الوزراء. يطلب فيها الرفع بأماكن تواجد وتمركز القوّة العسكريّة والأمنيّة الّتي تمّ صرف رواتبها، والّتي كانت الحكومة أبرقت له، قبل يومين من ذلك، بأن تعدادها بلغ أربعمئة وثلاثة وعشرين ألفًا وثلاثمئة وأربعة وستين ضابطاً وجنديّاً. وقد قمنا بإرسالها لمكتب رئيس الوزراء على الفور، قبل أن نؤرشف نسخة منها.

ورغم أن جميع الوثائق، من برقيّات ومذكرات وأوامر عمليّاتيّة وتصريحات مرور، كانت تحمل الوسم "سرّي للغاية"، إلّا أن الّتي كانت تأتينا من التحالف، إضافة لتلك الّتي تُبعث إليه، كانت الأعلى سريّة. ويبدو أن خرقاً ما حدث، أدّى لتسريب هذه الوثيقة. هذا ما أخبرنا به الفندم، دون أن يفصح لنا إلى أين تمّ تسريبها بالضبط. قال فقط أن التحقيقات جارية، وأن الاستخبارات العسكريّة ستتوصّل لا شكّ للضالعين في هذه "الخيانة"، والّتي يتمنى أن لا نكون نحن فيها الجُناة، ولا أحدنا.

ولم يزد على ذلك. صرفنا إلى العمل وغادر. وبقينا نمضغ تحليلاتنا. لم تعُد المسألة لدينا هي البرقيّة الّتي سُرّبت. بل لماذا أخذت الاستخبارات زين العابدين بالذّات، لماذا لم يكن سواه؟!

"لأنّه من السُلالة!"، هكذا أجاب قحطان، بوثوقيّة كبيرة وبنبرة تخلٍّ مزعجة. ويبدو أنني الوحيد لم أكن أعرف أن زين العابدين ينحدر

من أسرة سلاليّة. وقد اعتبرتها إجابة سخيفة. استفزّني هذا المنطق وبدد تلك الهالة من المهابة الّتي لطالما رأيتها تحيط قحطان.

"وإن يكن؟!"، اعترضتُ بعدائيّة. "حسناً. ربّما ليس هذا هو السبب الّذي جعلهم يقصدونه بعينه. لكنّي أثق أنّهم لم يرتجلوا هذا الانتقاء. بالتأكيد امتلكوا من المعلومات ما دفعهم لذلك". "إن جئنا للمنطق، كان يتعيّن عليهم أخذك أنت، كونك المسؤول عن الأرشيف"، قال شادي لقحطان، نازعاً السمّاعة عن أذنيه. ليتهكّم الأخير: "حسناً، بإمكانك تقديم ملاحظتك هذه للاستخبارات".

وكعادته، أراد معاذ إخماد هذا النّقاش: "هلّا توقفتم الآن عن هذه المناوشات، وجلستم على مكاتبكم لأعمالكم؟". "لا، لن نفعل"، قلتُ بإصرار، "في لهجة قحطان نبرة لم أستسغها. نحن زملاء هنا. ما حدث لزين العابدين كان من الممكن حدوثه لأيٍّ منّا. بل ربّما لن ينتهي التحقيق إلّا وقد جاؤوا لأخذنا تباعاً. هذا التعاطي البارد منه يصيبني بالذّعر. أريد معرفة ما يدور في خلده حيال الأمر".

" حسناً"، قال قحطان في فتور، وقد مال ليجلس على كرسيه وهو يمتشق سيجارة ويلتقمها، "لقد استفزّكم قولي بأنّهم أخذوا زين العابدين لأنّه من السُلالة. ذلك لأنّكم، مثلي، يمنيّون. طيّبون. لا أقصد بالطِيبة هنا المديح. سأكون صريحاً أكثر وأقول: ساذجون. لو لم نكن كذلك، سادتي، لما أفلح أولئك في أن يحكمونا لألف سنة وزيادة. تأخذون الأمور على ظواهرها. تعتبرون زين العابدين رجلاً وطنيّاً فقط لأنّه غادر المناطق الخاضعة لسُلالته، وجاء إلى هنا ليلتحق بالجيش

الوطنيّ. وكأنّما لا تعرفون أن ديدن هذه السلالة المكر والخداع. يزرعون أبناءهم في كلّ مؤسساتنا بخُبث، بدهاء، وبحسابات دقيقة. يدفعونهم إلينا ليصبحوا أعيناً لهم، يتلصصون من خلالهم على كلّ خُطانا. ينخروننا من الدّاخل. ونحن، لفرط سذاجتنا، نقبلهم. في كلّ مرّة، نقبلهم. ولكن صدّقوني، إن لم ننتصر بهذه المعركة، على سذاجتنا أوّلاً ومن ثمّ على هذه السُلالة، سيبتلعُنا الفُرس إلى الأبد".

وتوقّف قليلاً، ماضغاً سيجارته، مضيّقاً أحداقه، وكأنّما لاقتناص شيء في البعيد. وقد صمتنا له جميعاً. ليس عن قناعة بمنطقه، ولكن لما يمتلكها من قدرات خطابيّة. حين يتحدّث، سيّما بمسألة تأريخيّة، تنسكب عليه كاريزما غامضة، فلا يعود بوسعنا سوى الإنصات والتأثّر. نبدو حينها كأطفالٍ متحلّقين حول جدّة موهوبة في الحكي.

"أستغرب ما علاقة الفُرس بهذا الأمر. لماذا كلّما تحدّثتم عن قضيّتنا اليمنيّة، تحيلون ما يعتورها من خراب إلى الأيادي الفارسيّة؟! ما الّذي قد تريده إيران من بلد كاليمن، بكل هذا الإصرار وبامتداد القرون؟!" تساءل شادي. وكنّا قد شعرنا بأنّ النقاش سيطول، فمال كلّ منا ليجلس على كرسيّه، لاستماع رد قحطان.

"الفُرس يريدون سوار النّبي". "سوار النّبي؟!" سألناه جميعاً، باستغراب ودهشة.

"نعم، سوار النّبي. ليس من اليمن فحسب، بل من عموم الجزيرة العربيّة" قال مبتسماً، ثمّ استتبع سارداً: "لست مجنوناً. أعي جيّداً ما أقول. سأشرح لكم. لا شك أنّكم تعرفون ما كانت عليه الجزيرة العربيّة

قبل بعثة النّبي. مجاميع قبليّة مبعثرة هنا وهناك، بلا طموح. في الوقت ذاته، كانت الامبراطوريّة الفارسيّة هي القوّة العالميّة العظمى، أو بأقلّ تقدير: كانت أحد قُطبَي ذلك العالم. كما أن أغلب جغرافيا الجزيرة العربيّة كانت تحت قبضتها. ولم يكن أحد ليتخيّل أن هذا المصير سيتغيّر. لكنّه تغيّر، وبزمن قصير جدّاً.

ابتدأت هذه الرحلة، رحلة تغيير المصير، من الوعد النبويّ لسُراقة بن مالك، الفارس الّذي لحق به في طريق هجرته من مكّة إلى المدينة ليعيده لقريش فيحظى بجائزة المئة ناقة، بأنّه لو عاد إلى قريش وكتم عنه، ستكون جائزته سوار كسرى.

كان هذا هو الإعلان العربيّ الأوّل عن طموح الاستيلاء على الإمبراطوريّة الفارسيّة، الإمبراطوريّة الّتي نجح العرب، فعلياً، بالاستيلاء عليها بعد هذا الإعلان بأقلّ من عقدين من الزمان. خلال سنوات يسيرة، انتقل سوار كسرى لملكيّة سُراقة.

ما يجب إدراكه هنا، أنّ لكلّ حضارة روحًا، ولكلّ أمّة كبرياء. هذه الكبرياء يمكن تقديرها بالنّظر في أعلى قمّة سمقت لها يوماً. الأمم العظيمة، مهما نالها من هوان بفترة تأريخيّة ما، أو فترات، تظلّ روحها متأهّبة لوثبة أخرى لذُراها القديمة. ونحن هنا نتحدّث عن أمّة ملكت الدنيا لفترة زمنيّة مُعتبَرَة. وما تفعله اليوم إنّما هو محاولة للعودة لما كانت عليه. إنّه الحنين المسعور للمجد الآفل. تماماً كما يحاول الأتراك حاليّاً. وكما يجب أن نحاول نحن أيضاً، كأمّة بلغت يوماً السِدرة ذاتها.

الآن، يعترك الجميع، وسينتصر الأكثر استعداداً. فكما تعلمون: القمّة لا تتسع لاثنين. وعليه، يجب إدراك أن الفُرس لن يقنعوا حتى يتقلّدوا سوار النّبي كما تقلّد سراقة سوار كسرى بوعدٍ منه. الوعد الّذي تحوّل من لحظته إلى خُطّة".

انتهى من شرحه لهذا المجاز وران الصمت لوهلة، قبل أن يغمغم عبد اللطيف: "لم أفهم شيئاً!". ليزدريه شادي: "ومن يتوقّع الفهم من مجرّد برميل؟!". وأعود أنا، من ثَمّ، سائلاً قحطان: "فلنفترض أن قراءتك السّابقة للأسباب الكامنة وراء المعمعة الحاليّة منطقيّة وصائبة، أقول فلنفترض، ما علاقة السُلاليين هنا، في بلادنا، بالفُرس وحنينهم الإمبراطوريّ؟!".

"سأجيب عن هذا أيضاً. ولكن على معاذ أن يسمح لي بتدخين سيجارة ثانية!"، قال وهو يمتشق من علبة سجائره واحدة، أشعلها وعاد يحدّثنا: "ابتدأ الأمر، أعزائي، بتلك الرحلة للشاب الحميريّ سيف بن ذي يزن إلى بلاد فارس، والّتي طلب فيها العون الكسرويّ لطرد المحتلّ الحبشيّ. وقد وضع كسرى شرطين من أجل تقديم هذا العون. الأوّل: أنه بعد أن يتم طرد الأحباش، تبقى القوّة العسكريّة الفارسيّة في اليمن. يتزوّجون يمنيّات ويستقرون. ولا يُسمح لليمنيين بالزواج من نسلهم. والثّاني: أن يُجبى إلى المدائن مبلغاً ماليّاً سنويّاً. ولسببٍ لا أعرفه، وافق صاحبنا على الشرطين!

إنّها الحماقة ذاتها الّتي نقترفها كلّ مرّة: أننّا لا ننظر بعيداً. نحسب فقط خطوتنا القادمة، نخطوها، ثمّ نتوقّف لنحسب التالية. وهكذا.

لم يدرك صاحبنا أنّ شرط كسرى ذاك يؤسس لأخطر تغيير ديموغرافيّ ستعرفه هذه البلاد، وأنّه يدُقّ من خلاله خازوقاً في خاصرتنا إلى الأبد.

وحين بُعِث النّبي، كان المكر الكسرويّ قد بدأ يؤتي أُكُله. كان قد طرأ، بفضل ذلك الشرط اللعين، على المجتمع اليمنيّ مكوّنٌ غريب عنه كليّاً. إنّهم "الأبناء". هكذا اصطلح اليمنيّون على تسميتهم. وكانوا قد غدوا حينها حُكّاماً لصنعاء.

ولأنّ "باذان"، حاكم صنعاء، أسلم، فقد قرر النّبي تثبيته على الحكم، ليُطمئن الملوك أنّهم فيما لو آمنوا بهذا الدّين الجديد، لن يشكّل هذا خطراً على عروشهم. واستمر الأبناء بالتناسل، بالآليّة ذاتها، إلى هذه اللحظة. حتى أن بعض هذه الأُسَر ما تزال تتخذ من أسماء مناطق معروفة في إيران ألقاباً لها. هذه هي الحقيقة.

وأن تكون أصولهم فارسيّة، ليست هذه بمشكلة. على مرّ التأريخ الإنسانيّ، تفاعلت مختلف الأعراق مع بعضها. احتدمت. تمازجت. ثمّ تماهت. ألم يأتِنا الأحباش بفترة ما؟ والأتراك وغيرهم؟ ألم يحكمونا لفترات؟ أين هم الآن؟ لقد ذابوا. كلّنا الآن يمنيّون، باستثناء هؤلاء. ظلّ نسلهم متمايزاً. وكما هي عادة الأشياء: لا يستطيع الفرع إلا الحنين لأصله. إنّه نداء الدّم، النداء الغائر في العروق. وستظلّ هذه السُلالة تستجيب لهذا النّداء ما بقيت على تمايزها".

وبالكاد انتهى قحطان من استفاضاته، حتى ختم معاذ هذا النقاش جَبراً: "يكفي. زميلنا الآن لدى الاستخبارات. ولم يُبَتّ في أمره

بعدُ. نحن على ثقة بعدالة مؤسساتنا وحِرفيّتها. إن كان بريئاً، سيجعل الله له مخرجاً، وسيعود إلينا موفور الكرامة. وإن لم، فسينال جزاءً عادلاً. أمّا الآن، فكفوا عن الثرثرة، وليلتزم كلّ منكم بعمله".

وظللنا لثلاثة أيّام لاحقة، نتحسس ما ستفضي إليه التحقيقات، دون جدوى. لكنّي في اليوم الرابع استيقظت ليفاجئني شادي بأنّ زين العابدين قد أتى باكراً، وأنّه حزم حقائبه في صمتٍ ومضى. تملّكتنا الحيرة. وحين طالبنا الفندم بإيضاحات، لم يزد عن قوله: "لقد حُلّ الأمر!".

5

الأمر الوحيد الّذي بقي على الفندم معالجته بعد رحيل زين العابدين، كان سدّ الفراغ الّذي خلّفه. لم يستقدم جنديّاً بديلاً. نقل شادي من عمله على الفاكس ليغدو طبّاعاً، وأصبح الفاكس باستلام عبداللطيف، إلى جانب مهمّته الأساسيّة بإعداد تقرير يوميّ عن أبرز اتصالات محطّات اللا سلكي.

وقد قضيتُ، بعد هذه الحادثة، شهوراً من العُزلة. كان الركود يحقنني باللا جدوى ويسحقني بالحنين. ولم أعد أشعر أن ثمّة أيّ جديد لدى هؤلاء الزملاء قد تمدّني معرفته ببعض الحماس أو الامتلاء. كما لم تعد الاتصالات الهاتفيّة لجدّي وجدّتي وزملاء دراستي تكفي لإخماد حاجتي المستعرة للتواجد بينهم. وهرباً من سهوب الفراغ ومخالب الأشواق، آويتُ إلى القراءة والأفلام. اتخذت من غرفتي تلك صومعة ومن حاسوبي (الّذي اشتريته بالرّاتب السابق، والمملوء كتباً وأفلاماً) رفيقاً. ولم أعد أتواجد بين رفاق العمل سوى بتلك الساعة من نهاية كلّ ليلة. أنقِّب فيها عن الخسائر. أسجّلها. ثمّ أعود للنّوم.

وكان الطقس الشرس لمأرب يفاقم بؤسي. هذه المدينة الّتي ما تنفكّ الطبيعة تسوطها بالشمس وترمد عيونها بالغبار. سيّما في الوقت منذ الظهيرة حتى الأصيل. يغدو الجوّ حينها جحيميّاً. تغرز الشمس نواجذها على الأجساد بقسوة، تعُضّ بها وتُمرِض. وغدا منتهى أملي أن

أشهد هنا ولو يوماً واحداً ممطراً. ولكَم كانت فرحتي حين جاء هذا اليوم.

كان الوقت عصراً حين هَمَتِ السماء. ليس بالغزارة الّتي اعتدتها في القرية، لكنّه كان مطراً غزيراً. خرجت بكامل ملابسي إلى الساحة وبقيت تحت مزاريب السماء حتى أمسَكَتْ. الله كم طهّرني ذلك المطر، كم غسل دواخلي، وكم أرهف روحي!

وبقدر سعادتي بالمطر كانت سعادتي بعده برائحة الأرض. إنّي لأؤمن تماماً أنّ المادة الأوّليّة الّتي صُنعنا منها هي الطين المبتلّ. ليس فقط لأن الكتب السماويّة أخبرتنا. بل أيضاً لتلك السكينة الحانية وذاك الحبور الغامض اللّذَين يخامراننا والأرض تنفح أنوفنا برائحتها وقد ارتوت ماءً. إن ذلك النُعاس العذب الّذي يهدهد أرواحنا حينها لا يمكن تفسيره سوى بوقوف كينونتنا على منبعها الأوّل، على مادّة الخلق الأولى. إنّها تشبه عودة طفل لأحضان أمّه. وهي بالطّبع عودة لا واعية، ليست محسوسة تماماً. وهذا ما يضفي عليها ما يميّزها من سحر.

لم أقرأ تلك الليلة، ولم أشاهد أفلاماً. فقط غيرت ملابسي وخرجت لأجلس على المصطبّة المحيطة بالمبنى. أرخيت ظهري إلى الجدار وبقيت أرمق النجوم، مبتسماً، وأتنشّق الهواء الرّطيب. وقد اتصلت بجدّي وجدّتي وأخبرتهما أن مأرب الليلة تشبه قريتنا. كنت سعيداً للغاية، وكأنّما عدتُ طفلاً.

ولم أدخل غرفة العمل إلا والساعة تشير للثانية بعد المنتصف. وكالعادة، أخذت رزمة الأوراق القابعة حينها أمام معاذ، وجلست على مكتبي لابتداء التنقيب.

كان الجميع قد نام، باستثناء معاذ. ومن خلال نظرة مبدئيّة، لاحظت أن الخسائر أكثر نسبيّاً من المعتاد. وما أن بدأت بالتفحّص، إلّا والتقى على جمجمتي صاجان هائلان، بقوّة جبّارة. وجدت اسم نشوان ضمن الشهداء.

لا أعرف كيف طارت بي قدماي لبوّابة القصر. لم أشعر بنفسي إلّا وشيء حادّ ينغرز في ساقي ويسحبني للوراء، قبل أن أسمع طلقاً ناريّاً أعقبه عواء خافت ومقتضب. تحررتْ ساقي، ولكن بضرر ملحوظ. نظرت فإذا ببارود جثّة هامدة، تتسع تحتها بقعة كبيرة من الدّم .

اقترب مني معاذ (وهو يعيد مسدسه لخاصرته ويهدّئ من ارتباك الحرس) واحتضنني، باكياً، ومتمتماً: "لقد كان أخي أيضاً. لم يكن أخاك وحدك". ثمّ أخذ من ضابط الأمن مفتاح سيّارته على عجلٍ وأسعفني إلى المشفى، لأتداوى من عضّة بارود.

الطريق لا تزيد عن ثلاث دقائق. لم نتحدّث. بقينا نبكي فحسب. حتى والممرّض يطهّر ما خلّفته نيوب بارود على ساقي من ثقوب، ظللنا على بكائنا الأخرس.

ولكنّا، بعد أن أتمّ الممرّض عمله، وبينما نعبر بهو المشفى عائدَين، تفاجأنا بواحد من رفاق نشوان وقد صار أمامنا. صافحني بحرارة، وسألني: "هل زرت نشوان؟!". لم أتمكّن من استيعاب الأمر،

وقد بدت لي ابتسامته أشبه بخيانة. "رحمة الله عليه. هل غدا هنا بالثّلّاجة؟"، نبستُ. "ماذا؟! أيّة ثلّاجة؟!"، تساءل الرّجل، "إنّه محض جرح".

لا أعرف وصفاً لشعوري لحظتها ومفاعيل ذلك الشعور على جسدي وأنا أتذكّر الأخطاء الّتي كانت تقترفها أحياناً بعض الوحدات العسكرية في مواقفها اليومية، حيث كانت ترفع بأسماء جرحى على أنّهم شهداء، والعكس. وغالباً ما تعيد الرّفع إلينا بالتصحيح بعد يوم أو يومين.

أمسكته من تلابيبه وقد بتُّ أسمع لدمي في أوردتي ضجيجاً: "أين هو؟!". ليأخذني ومعاذاً إلى الغرفة الّتي وجدنا فيها نشوان، ممدداً على أحد الأسرّة، على رقبته قطعة شاش، ولا تفصح ملامحه عن كثير عناء!

قبل يومين، كُلِّف ومجموعة من رفاقه باقتحام إحدى التباب كان الانقلابيون قد تحصّنوا فيها جيّداً. ويبدو أنّهم بطريقةٍ ما علموا بالهجوم قبل حدوثه، فاستعدّوا له. وما أن بلغ هؤلاء سفح التبّة حتى أمطروهم بوابل من الرصاص والقذائف.

كانت الخسائر كبيرة. استشهد اثنان من رفاقه، وجُرح عدد منهم. أمّا هو فقد اخترقت رصاصة عنقه. دخلت من جانب الحنجرة تماماً ولم تحِد عن عموده الفقريّ في خروجها سوى مسافة شعرة. نجا بمعجزة. وبالكاد تمكّن الباقون من العودة به للمكان الّذي ابتدأ منه الهجوم. ليتمّ نقله بعدها إلى هنا، لهذا المشفى.

احتضنته وبكيت، ثمّ احتضنه معاذ وبكى. وقد تأثّر هو أيضاً فبكى. ثمّ عاد ليضحك حين أخبرته أني أيضاً صِرتُ جريحاً مثله، وبسببه.

كان المشفى ضاجّاً بالجرحى وبالزوّار. لم نتمكّن أنا ومعاذ من البقاء إلى جانبه حتى الصّباح، كما كنّا نرغب. أقفلنا عائدَين إلى القصر، على أن نعود لزيارته ظهيرة اليوم التّالي.

غير أنّا حين عدنا اليوم التالي، لم نجده. اتصلنا برفيقه، بعد أن عاين الممرّض ساقي وأعاد تضميدها، ليخبرنا أنّه قد انتقل إلى سكن الجرحى. فذهبنا إليه.

ربّما أسوأ جحيم نفسيٍّ يمكن أن يصطلي به المرء، أن يزور سكناً لجرحى حرب. إنّه العرض الأكثر إيضاحاً لقُبح الحروب، لمأساويّتها. هناك، وأنت تنظر في الأجساد المجدّعة، المعطوبة، والموجوعة، وهي متراصّة بكثافة، لا يمكنك سوى البصق في وجه الجشع البشريّ وقد أفضى بنا لهذا البؤس، لهذا التشوّه. لا يمكنك سوى البكاءِ من أعماقك، متحسّراً على حال التوحُّش الّذي غدا يجابه به الإنسان أخاه الإنسان. هل يرى المتسببون بالحروب، مشعلوها، هذه المناظر؟! هل يسمعون كلّ هذا الأنين؟! بماذا يشعرون حينها؟! أثمّة ما يستحقّ أن يُرى في سبيله مشهد كهذا؟! تظلّ تتساءل فحسب، دونما أملٍ بإجابات. لقد كفّ الضمير الإنسانيّ عن تقديم هذا النّوع من الإجابات لحظة أن قُتل هابيل.

وجدنا نشوان ما أن دلفنا السّكن. كان جالساً مع بعض رفاقه على المصطبّة المحيطة بالعنبر الأوّل. متكئين على بعض الطوب. يمضغون القات، وكأنّ جِراحاً لم تكن!

بعد أن انضممنا إليهم، سألت نشوان عن حاله. أخبرني أنّه بخير تماماً لولا أن قطعة الشاش الملصوقة خلف عنقه تُشعره بالحكّة. "اصدُقني بالله عليك: أهي رصاصة اخترقت عنقك، أم شوكة انغرزت في جلدك لوهلة؟! حكّة يا نشوان؟! حكّة؟!" قلتُ، فضحك الجميع.

وطفقنا نمضغ القات ونتجاذب الأحاديث. وكانت عيناي تقع، بين فينة وأخرى، على جسد معذّب، فأشعر كأنّما أمضغ شوكاً. ورغم فرحي لكون نشوان بخير، إلا أن خوفاً كبيراً دهمني وأنا أفكّر بأنّه سيعود مرةً أخرى إلى الجبهة.

وكنت متّكئاً بمكانٍ وسط، بينه ومعاذ. التفتّ نحوه مستجدياً: "أرجوك، لا تعُد للجبهة!". مالَ، ناظراً إليّ، مبتسماً: "لماذا؟ هل انتهى الانقلاب؟!". "بربّك يا نشوان! تدرك أنّه فخ. تعرف أننا حُشِرنا بين فكّي تمساح: بين انقلاب وحشيّ، وشرعية بلا أُفُق. نحن يا صديقي نتخبط فحسب. نمضي بلا قيادة، بلا خطّة. لقد أفلحوا في جعلها حرباً عبثيّة. نناضل من أجل عودة رئيس وحكومة طابت لهم المنافي. أسلموا أنفسهم لاسترخاءاتهم وأسلمونا لعبث العابثين. حتى الجيش، يكادون ينجحون في تحويله لمحض أداة لمراكمة مكتسبات بعض متنفذيه. بأيّ أفق ستستمر إذاً في قتالك؟!".

اتسعت ابتسامته. علّق عينيه في الأفق: "نحن لا نقاتل فقط ليعود الرئيس وحكومته. لا يعنينا من هذه العودة سوى أنّها معيار نجاحنا أو فشلنا. فلتدرك ذلك جيّداً. نحن نقاتل، قبل كلّ شيء، من أجلنا. من أجل حريّتنا، كرامتنا، ومستقبلنا. أعرف مخاوفك يا صديقي. وهنا، سأستخدم توصيفك أنت لحالنا: أنّه فخ. لكي نخرج منه، لا بد وأن نتضرر. ستصيبنا الجروح والخدوش. ولكننا، بإيماننا، سننجو. حتماً سنتجاوز كلّ هذا".

وتوقّف بُرهة، ثمّ نظر إليّ: "أتعرف لماذا اخترت هذا المكان بالذات لجلستنا اليوم؟"، ودون أن ينتظر منّي جواباً، سمق بنظره قليلاً، أعلى من مستوى السور، قائلاً: "بسبب هذه اللوحة".

كانت لوحة كبيرة، معلّقة على أحد أعمدة الإنارة في الشارع المحاذي. تحمل صورةً للشهيد علي ناصر القردعي، بطل ثورة 48، على كتفه البندقيّة الّتي ساقت الأجل لـ يحيى حميد الدين.

حملقتُ في الصورة، ولم أفُه. فمضى، بعينين مؤتلقتين: "لكَم أعشق هذا البطل. هذا الدميم الأشرم، أشعر بالانتماء إليه أكثر من أيٍّ من أبطال الحركة الوطنيّة. ذلك أنّه لم ينطلق في ثورته من أيديولوجيا ما، بل استجابة لذاك النّداء الأصيل القابع في أعماق أيّ إنسان سويّ: نداء الحريّة. يؤججه أيضاً الشعور بالمسؤوليّة تجاه المجموع، الشعور الدّافع للفداء والاستبسال. هذا النّداء بالنّسبة له، كان شديد الصفاء، تماماً كصفحة جدول فردوسيّ. لم تكن الأيديولوجيا عكّرته بحسّ التمايز واعتلالاته، أو حلّقت به بعيداً عن تُربته. كما لم ينتظر

دعماً من أحد، ولم يأبه بفارق الإمكانات بينه وخصمه. فقط نظر في حريّته والطاغية يغلق عليها قبضته، فعزّ عليه أن يحيا ذليلاً، أن يظلّ مواطناً من الدرجة الثانية. أقسم على مقاومة هذا المصير. تنكّب بندقيّته ومضى، ثائراً، فادياً. حقّاً أعشقه. وأشعر أنّه أبي".

كان يتحدّث كمن يتلو صلاة. وكان معاذ، الّذي استهلك وقته منذ ابتداء جلوسنا، في التعرّف إلى رفاق نشوان، يخلل لحيته حيناً ويستاك حيناً، قد عاد لحضوره معنا.

"أخيراً أعرتنا اهتمامك؟ ألم نتفق، في مجيئنا، أن تساندني لإقناع هذا العنيد بأن لا يعود لصرواح؟ ما بالك وقفت متفرجاً؟!"، قلتُ له، بحنق مُفتَعل. ضحك، قائلاً: "لا يا صديقي، لم نتفق. طلبت مني مساندتك، لكنّي لم أعدك بشيء. ذلك أنّي أعرفه أكثر منك. صحيح أنّه ابن قريتك وصديق طفولتك وصباك، لكنّه زميل دفعتي ورفيقي بعدد من المعارك والاشتباكات. وصدّقني: ليس من علاقة أعمق من تلك الّتي تُنسج أمام عيون الموت، ولو كان زمنها يسيراً. وانظر، ها أنت ذا ماضٍ معه في محاولةٍ أعرف أنا، منذ البداية، أنّها ميؤوس منها".

وهنا، اقتنصت الفرصة وطلبت منهما يحدثاني عن فصولٍ من صداقتهما. كيف وأين تطوّرت علاقتهما لهذا الحدّ، العلاقة الّتي ظلّت ملامحها مبهمة لديّ لتلك اللحظة. ليشرع معاذ، إثر إصراري، في استنطاق ذاكرته.

بعد تخرّجهما من الكليّة الحربيّة، تمّ توزيعهما للخدمة في اللواء العسكريّ الّذي كان يحمل اسم "310"، والمتمركز حينها بمحافظة عمران.

حينما حاصر الحوثيّون هذه المحافظة في طريقهم لإتمام الانقلاب، لم يكن مضى على تخرّجهما سوى فترة وجيزة. وقد كانا من أكثر الضبّاط حماساً لقرار قائد اللواء، آنذاك، بالمواجهة العسكرية وعدم التسليم. وكانت مهمّتهما تنظيم وتدريب المتطوّعين من المدنيين لمساندة اللواء، وتوزيعهم على المواقع المتّفق عليها ضمن الخطّة الشاملة للمعركة. وقد بذلا، لأسابيع متصلة، جهوداً نالا من خلالها ثقة القيادة واحترامها. تلك الجهود الّتي لم يكتب لها النّجاح أبداً، والّتي أُجهضت بتمكّن الحوثيين من اقتحام مبنى القيادة، ومن حسم المعركة وإسقاط المدينة.

كانا يومها بطرفٍ ناءٍ من أطراف المحافظة، متمركزَين بإحدى القمم الجبليّة مع مجموعة من المتطوّعين. ونظراً لما كان يعتور الجانب العمليّاتي للّواء من قصور، لم يتمكنا من معرفة انتهاء المعركة سوى ظهيرة اليوم التّالي. أخبرهما الجنديّ الّذي أرسلاه صباحاً لاستطلاع أسباب تأخُّر الإمداد. كانت صفعة قاسية جعلتهما يجثيان كمخبولَين. وبعد أن اجترعا عدداً من دقائق الذهول وأدركا عبثيّة أيّة محاولة للمقاومة، لم يعد بمتناولهما سوى النزول والمغادرة إلى صنعاء.

ورغم ما أبدته نقاط التفتيش الحوثيّة من سيطرة، والّتي كانت غطّت كلّ منافذ المدينة، إلّا أنهما تمكّنا من اجتياز أغلبها. ساعدتهما في ذلك ثيابهما المدنيّة الّتي كانا يرتديانها منذ مهمّتهما مع المتطوّعين.

لكن تلك الرحلة القاسية أبت أن تنتهي بسلام. فبينما كادا يجتازان آخر نقطة تفتيش، شكّ فيهما أحد أفرادها. وكان معاذ قد بلغ من التوتر ما دفعه لإطلاق النّار على الرجل ما أن سأله عن هويّته. أرداه فوراً. لتبتدئ معركة مقتضبة بينهما وباقي أفراد النّقطة. كانت نتيجتها استقرار رصاصة في بطنه، وإصابته بجرح كبير في ناصيته.

وبمعجزة، تمكّن نشوان من الاستيلاء على سيارة كانت قابعة بجانب الطريق، على مقربة منهما. شحن رفيقه المثخَن على صندوقها، وانطلق به تحت وابل من الرصاص. وبالاستعانة بالكثير من العلاقات، تمكّن من الوصول به لصنعاء. ليخضع معاذ بعدها للعلاج لأسابيع تالية.

هناك، في صنعاء، بقيا لفترة يتجرّعان ما اعتبراه خزياً اقترفته المؤسسة العسكريّة في حقّ نفسها. التصريحات المائعة الّتي ساقتها مؤسستا الرئاسة ووزارة الدّفاع لتبرير خذلانها للوائهما، كانت تزيدهما قناعة بأن الدّولة لم تعد سوى ساتر هزيل لتمرير هذه التمثيليّة بأقلّ قدر من الغرابة. وغدا بالنّسبة لهما مجرّد النّظر في البدلة العسكريّة، البدلة الّتي لطالما اعتبراها فخرهما وشرفهما، يشعرهما بالقرف.

ومنذ إتمام الانقلاب، مضيا يتنقّلان من جبهة لأخرى على امتداد البلاد. يقارعان المدّ الحوثي ما استطاعا. يقاتلان هنا ويُدرّبان

هناك. إلى أن أعلن التحالف تدخّله، ودعمه لتأسيس جيش يمنيّ. انطلقا من فورهما لمنطقة "العَبر" الحدوديّة، حيث شكّلا مع أمثالهما النّواة الأولى لهذا الجيش ونقطة انطلاقته.

انتهى معاذ من سرده ولم تنتهِ دهشتي. ظللت أتابع أقاصيصه كمن يشاهد فيلماً. أكبرتهما، وشعرت نحوهما بالغبطة. نقّلت نظري بين عيونهما، وفهمت كلّ شيء. إنّها عيون بالغة الصفاء، الثقة، والإيمان. تلتمع يقيناً. لقد سبق وخَطّت لها مساراً محدداً لهذه الحياة تثق بصوابيّته، ولا ترى لنفسها وجوداً سوى من خلاله.

وعرفتُ استحالة أن أغدو مثلهما يوماً. لا أعرف في عمري ولو لحظة واحدة لم يتناوشني فيها الشك، يضعضع يقينيّاتي. حتى بهذه اللحظة، لم أستطع حسم ما إذا كنت أرغب أن أصير مثلهما بطلاً أم لا. فقط فكرت أن انغراسي بينهما منذ بداية مقيلنا كان فعلاً تعسفيّاً. كان يجب أن يجلسا متجاورَين.

وفجأة، حملق نشوان في عينيّ: "سألتني ببداية حديثنا عن رهاني، عن الأفق الّذي يدفعني لأستمر في القتال. سأخبرك. لكن قبل ذلك عليّ الاعتراف أن الصورة كما قلتَ أنت، قاتمة. لكنّي أختلف معك فيما تبديه من استسلام، في استجابتك السلبيّة لمعطيات اللا جدوى. سأقول لك هنا شيئاً أتمنّى أن يستقر جيّداً في وعيك: كما أن هناك بشرًا يستطيعون فرض واقع سيّء، هناك أيضاً بشر يستطيعون فرض واقع جيّد. لستُ وحدي أقاتل يا صديقي. هناك سواي أيضاً. ولن أكون مفرط التفاؤل إن قلت إنّهم كثيرون. يحسبون خطواتهم جيّداً،

ويعرفون كيف يستنفدون الممكن للعبور إلى اللا ممكن. إنّهم لا يحاربون انطلاقاً من حقد أو جشع. بل من قناعتهم بأن هذا الوطن الكبير حقيق بأن لا يظلّ حبيس عثرة كهذه، وأن ليس لأحد فيه أن ينصّب نفسه ربّاً للآخرين. ولا أحصر القتال هنا بذاك الّذي بالبندقيّة. بل بقيام المرء بواجبه إزاء ذاته ومجتمعه ووطنه، وفقاً لاستعداداته ومكان تواجده وحدود ممكناته. أظنّ الكلمة الأنسب هنا هي النّضال".

ولم أنبس بعد. وكفّ الجميع عن أحاديثهم وأخلدوا إلى السكون المتأمّل، السكون المعتاد بنهايات جلسات القات.

وكنت لاحظت في دخولي السكن أن مياه الصرف الصحيّ طافحة ببعض الأماكن من الساحة. ولم أعلّق على الأمر، رغم أن الريح لم تنفك تجلب نتانتها لأنوفنا باطّراد. لكنّي الآن وأنا أتابع عدداً من الحمائم اختارت من تلك البقاع مهبطاً لها ومضت تحشر مناقيرها في القذارات، أشعل فيّ هذا المشهد رفضاً لكلّ ما صارت عليه الأشياء. ولم أستطع إلا أن أضحك بحسرة، هامساً لذاتي: "ما كلّ هذه التناقضات؟ كيف يعود بوسعي استيعاب كلّ هذا؟!". وحين دنا المغرب، مضيت ومعاذ، عائدَين إلى القصر.

كانت الشمس، لحظتها، قُرصاً أحمراً يغطس في أفق أرجوانيّ، باستسلام، دونما أمل، وبلا عزاء. وقد استجابت دواخلي لهذا المشهد بكآبة غامضة. وفكّرت، وأنا أحملق في اللوحة الدّامية إزائي: لو كان الله يبكي لكانت هذه إحدى دموعه، ربّما آخرها. لكنّه، بالتأكيد، لا يبكي!

الفصل الثالث
الصّحن

1

لم أكن لأتخيّل أن تلك الدّعوة الّتي ظلّت جدّتي ترفعها في صباي، تطلب من الله، كلّما ساءها منّي تصرّف ما، أن يكلّف أحد عفاريته بمهمّة إبعادي عنها إلى "صحن الجنّ"، لم أكن لأتخيّل أنّها ستؤخَذ على محمل الجِدّ، لكن هذا ما حدث!

وقد ظلّ هذا الاسم، حتى حدود مراهقتي، محافظاً على الصورة الأولى الّتي رسمها عنه خيال الطفل الّذي كنته، باعتباره صحناً نحاسيّاً شاسعاً تتقافز في قعره وعلى حوافه مخلوقات شبحيّة مبهمة، تلوّح لي. ثمّ أدركت، لاحقاً، أنه اسم مكانٍ في مأرب. وعرفتُ، بعدها، أنّه معسكر.

ومنذ نزوحي والتحاقي بالجيش، لا أتذكّر يوماً لم يشنف فيه هذا الاسم أذني مرّة أو اثنتين. إنّه المعسكر الّذي يضمّ حالياً أغلب مقرّات دوائر الجيش وعدداً من ألويته. ورغم أنّي صرت أدرك ماهيّته، إلا أن وجداني ظلّ يحتفظ له بالمستوى ذاته من المهابة والدّهشة. لكنّي لم أفكّر أبداً في زيارته، ولم أُضطرّ لذلك. فقط حين صدر قرار جمهوريّ بتغيير رئيس هيئة الأركان، كان انتقال وحدتنا من القصر إلى صحن الجنّ، حيث مقرّ الدّائرة الّتي نُعتبر ضمن تشكيلاتها، واحداً من حزمة قرارات اتّخذها، من فوره، رئيس الأركان الجديد.

أكثر ما شقّ علينا في الأمر، نقل الأرشيف والأجهزة. بالنّسبة لي، وأظنّ هذا أيضاً كان شعور شادي، تحمّست لهذا الانتقال. أمّا الباقون، فبدا أنّه أتى معاكساً لرغبتهم. سيّما قحطان وصابر. سيتعيّن عليهم قطع مشوار يوميّ مُرهِق وطويل إلى سوق القات الّذي سيُضْحي بعيداً نسبيّاً.

اليوم الأوّل لانتقالنا، قضيناه في التعرّف على طبيعة المكان، وكذلك على المبنى الّذي غدا مقرّاً لعملنا. وكنت مشدوهاً تماماً.

لا أظنّ أكثر عبقريّة ممّن أطلق اسم هذا المكان، سوى ذاك الّذي اقترحه معسكراً. إنّه شديد التحصين، بشكلٍ طبيعيّ، وعلى نحو مدهش. يبدو وكأنّما هبطت يد فولاذيّة هائلة من السماء واقتبضت من الأرض، مُخلّفةً هذا الصّحن. شاسع. يتوزّع في جوفه عدد من الأبنيّة الأقرب لكونها فللاً سكنيّة. ويتناثر على حوافه عدد من الهناجر بأحجام متباينة، تتكدّس داخلها بعض الآليّات.

كان الشتاء قد حلّ. ولا أقسى من أشتية الصحاري. نهاراتها هجير، ولياليها زمهرير. في الظّهيرة، يكون المشي تحت كلّ تلك الشمس، الساحقة والقريبة جدّاً، مغامرة مُكلفة. لا يكاد يمضي المرء بضع خطوات إلا ويشعر بدماغه قد استحال للَبنٍ مخضوض، ويخال إليه أن رائحة شواء تنبعث من جسده ومن كلّ جسد يُدانيه. ولا تسلم عيناه من أذيّة الانعكاس الباهر لهذا الدّفق الشمسيّ الغزير على الرّمال الصفراء المتوهّجة. أمّا الزوابع، بكثرتها وديمومتها، فتشعرك أنّك انتقلت لكوكبٍ غرائبيّ ليس له من كوكب الأرض سوى بعض الملامح. تبدأ

الزوبعة واهنة، ثمّ تشرع في التضخّم. ولا تني تذرع مساحات الصّحن، تبحث لها عن مخرج. لكنّها تيأس أخيراً. تذوي. وتتبدد. بمشهد يثير في النّاظر حسّ الرّثاء ويبعث في فؤاده حزناً جليلاً غامضاً.

أمّا اللّيل، وبالرّغم من ذلك البرد الّذي يعُضُّ، فقد كان بالنّسبة لي فاتناً، سحريّاً. لسببٍ ما غير معلوم، تبدو السماء هنا أقرب من أيّ سماء أخرى. في الليال المقمرة، تتوهّم لوهلة، وأنت تحدّق في قُرص الفضّة المعلّق تماماً فوق رأسك، أن بوسعك مدّ كفّك لمناغاته، الكفّ ذاتها الّتي قد ترفعها في غياب القمر لاحتفان عددٍ من النّجوم!

هنا، لم يعد علينا التكدّس في غرفة أو اثنتين. لقد كان نصيبنا من هذا المبنى الضّخم، البدروم بأكمله. والّذي يتكون من عشر غرف متسعة، مُكيّفة، وفخمة التأثيث. سُرعان ما توزّعناها. وقد منحني هذا التطوّر شعوراً بالخصوصيّة جميلاً. لكن شادي أصرّ، بعد يومين من وصولنا، على أن يشاركني غرفتي. كان قد قرر اعتزال الشِّعر والتفرّغ لكتابة رواية عن بؤس المرحلة، تكون قصّته مع زينب محورها. وعوضاً عن أن يميل إلى العزلة من أجل ذلك، قال إنه يحتاج تواجدي المستمرّ، لأنّ النقاش معي يمنحه الإلهام! وقد رضختُ.

أكثر ما وجدناه مُبهجاً بهذا الانتقال، أنّه صار لدينا غرفة كبيرة، على أحد جدرانها شاشة ضخمة. نجتمع فيها لساعتين يوميّاً، بعد الظهيرة. نقضيها في المقيل ومشاهدة بعض ما تعرضه القنوات التلفزيونيّة.

بعد مرور أسبوعين، أتى مدير الدّائرة. ضابط كبير يحمل رتبة لواء ركن. ارتفع مستوى التأهّب لدينا وباقي الموظّفين المقيمين في الطّابق الأوّل، فوقنا. في ذلك اليوم، أتى الفندم إلى الدوام منذ ساعات الصباح الأولى. تبدو عليه ملامح من يدرك أنّه لم يعد السيّد الكليّ للمكان. ولم يزُرنا المدير، كما كان متوقّعاً.

لكنّا استيقظنا اليوم التّالي على نداءِ مُستنفِر، يدعونا للجمع. وفي أقلّ من خمس دقائق، صِرنا، جميعاً، نحن وباقي موظّفي الدّائرة، في الحوش، مُصطفّين في عدد من الطوابير. ليخرج إلينا المدير أخيراً، على كتفيه وصدره الأشرطة والعلامات المميزة لرتبته الكبيرة.

رحّب بنا باقتضاب، ثمّ مضى في استهلاك باقي الوقت بعتابٍ لا يخلو من الوعيد على ما سمّاها الجُنحة الّتي اقترفها، لا شكّ، أحدنا في الأمس، بتركه الحمّام على قذارته. ليظلّ بعدها يشرح لنا، لقرابة الرُبع ساعة، الطريقة المثلى للتغوُّط!

لم نأخذ الأمر سوى باعتباره إهانة. كان أغلبنا متحصِّلاً على شهادة جامعيّة. لم نكن نفتقر للذّوق لنستحقّ استهزاء كهذا. لكنّا، ونحن ننظر في كتفيه المثقلتَين بالرُتبة الهائلة، ونفكّر بحساسيّة وأهميّة منصبه، لم نعد نعرف هل يُعَدّ حديثه هذا استهزاءً في حقّنا أم في حقّه هو أم في حقّ الشرعيّة ككلّ. تميّزنا غيظاً. وما أن صَرفَنا بعد إتمام عبثه، إلّا وبدأنا نتقيّأ حنقنا، في ملاسنات خافتة.

أكثرنا غضباً كان شادي. أقسم أن يتغوّط أمام باب الحمّام، ردّاً على هذه الإهانة. ضحكنا جميعاً لهذا التهديد العبثيّ. لكنّا استيقظنا

اليوم التّالي على عقاب كئيب، قضى بتنظيفنا كامل المبنى مع الحوش، إضافة لتلويحٍ جدّيٍّ بفصلنا جميعاً إن تكرر الأمر. كان شادي قد نفّذ تهديده فجراً.

وكما هي العادة، بعد كلّ تغيير، ما يلبث الاعتياد يعود ليطغى على كلّ شيء ويحقن الأنفس بالملل. وأخذ البؤس يتصاعد، يفاقمه ما حدث من تأخير في صرف الرواتب. وكان صابر أكثر المتضررين من ذلك. كلّ ليلة بات علينا استماع عريضة امتعاض يشكو بها وضعه الأسري، ويمضغ شتائمه للتحالف والشرعية والحوثي بآن.

في إحدى الليالي، كنت صاعداً كعادتي لسطح المبنى لمسامرة النجوم، فوجئت بوجود أحدهم على السّطح، متلفعاً رداءه الشتويّ الطويل، يتحدث في هاتفه وينشج. اقتربتُ بهدوء، وانتحيتُ زاويتي البعيدة نسبيّاً. عرفت من نبرته أنّه صابر.

كان يتحدّث في البداية مع ابنه، بلثغة اتّضح لي منها أن ابنه هذا في سنواته الأولى. كان يخبره، بصوت متهدّج، بأنّه سيعود إليه قريباً، وسيشتري له "ثيّارة". ثمّ ما انفكّت نبرته تتّخذ جديّة وحنقاً. صار يتحدّث إلى زوجته. وقد أنهى الاتصال بسربٍ من الشتائم ساقه إليها لعدم تفهُّمها لوضعه.

ولما استدار للنزول، رآني. سألني، وهو يتنشّق دموعه، منذ متى وأنا هنا. "منذ اللحظة الّتي وعدت فيها ابنك بثيّارة". ضحك، قائلاً: "عليك اللعنة"، ماضياً ليجلس بجواري.

تنهّد بحُرقة. ثمّ أشعل سيجارة أخذ يعِبُّ دخانها كما لو لتضبيب أحشائه. وبعد أن صوّب نظره في السّماء، أنشأ يحدّثني: "لقد تعبتُ يا صديقي. تعبتُ. أتعرف؟ يظلّ المرء حرّاً حتّى يتزوّج. لكَم أحسدك لخلوّ بالك. بلا زوجة، بلا أطفال، بلا مسؤوليّة. إنّك في الجنّة يا رجُل، في الجنّة". "لستُ خالي البال صدّقني. لكنّي أفهمك". "لا. لن تفهمني. فقط حين تغدو مسؤولاً عن عدد من الأفواه يتعيّن عليك إطعامها، حينها فقط ستفهمني. ستعرف أيّ جحيم أصطلي به. حين تعجز عن أداء واجبك كأب، كزوج، ستفهمني"، قال هارساً عقب سيجارته بعنف. ولم أفُه.

ليستأنف: "أضحى الموت أرحم. لقد خَصَتنا الحرب يا رجل. أيّة رجولة تبقى لمن استنفد حِيَلَه ولم يتمكّن من إشباع أهله؟ من توفير مسكن لهم؟ أتعرف؟ لم آتِ إلى هنا رغبة بالجنّة. أخشى الموت كثيراً. ليس لأنّي جبان. ولكنّي أرى ما يعانيه أهلي وما زلت بينهم أساندهم، فيصيبني الذُّعر لمجرّد خيالي بأنّي قد أفارق الحياة وأتركهم مكشوفين لكلّ هذا البؤس. حتى هذا الوطن الّذي تتحدّثون عنه، لا أفهمه لأموت من أجله. لقد عشتُ مخلوقاً معذّباً. لم تهبني الحياة شيئاً، هكذا تفضُّلاً منها. كلّ شيء حصلت عليه، انتزعته انتزاعاً. بأظافري انتزعته، بنواجذي. لم أستطع إكمال دراستي. تعيّن عليّ مساندة والدي في إعالة أمّي وإخوتي. ثمّ اقترفتُ الزواج، وصار عليّ أيضاً إعالة زوجتي وأولادي. إنهم سبعة. لا أعرف كيف صاروا سبعة! اشتغلت في كلّ شيء لتلبية احتياجاتهم. كانت حياة قاسية، لكنها تُحتَمَل. ثمّ جاءت

هذه الحرب، وأوقفت حال البلاد. أوصدتْ بوجهي كلّ الأبواب. فقط باب الحرب بقي مفتوحاً، فأتيتُه. جئت لانتزاع لقمة أولادي من فم الحرب. هذا ما أتى بي. جنّتي، وطني، هم أولادي، ابتسامتهم. لكنّ هذا الباب يوشك الآن أن يوصَد. صار مقصلة فحسب. يفصل رأسك عن جسدك دون أن يمنحك شيئاً".

ثمّ توقّف لوهلة قبل أن يلتفت نحوي بغتة، كملسوع: "لكن، طالما لن تفهمني، لماذا أخبرك بكلّ هذا؟! طوال الشهور السّابقة أسمعكم تتحدثون. فقط تتحدثون. تعتلكون كلّ الكلمات الخرقاء الّتي قرأتموها في الكتب، وتظنّون أنفسكم تفهمون كلّ شيء. أقسم لك، لستم سوى ملاعين، لا تفهمون شيئاً. وإلّا فأخبرني: كيف ضاعت البلاد؟! طالما وأنتم تعرفون كلّ شيء، لماذا سمحتم للحرب أن تأتي؟! هُراء، كلّ أحاديثكم هُراء. محض نُباح. كلّكم كلاب!".

ولم أدرِ كيف أشاركه ألمه، فظللت على صمتي. سكنَ هنيهةً، ثمّ قال، كمن دهمه الحلّ فجأة: "سأذهب لجبهات الحدود. هناك يمنحون الجنود رواتب مجزية. أمّا هنا، فقد بات الوضع مزرياً".

ولم يستمرّ في جلوسه، بعدُ، سوى لدقائق. ليتركني بعدها أتساءل عن مآلات سياسة التحالف فيما يتعلّق بتباينات الدّعم الماديّ. كان هذا الدّعم يتضاءل كلّما ابتعدت الجبهات عن حدود المملكة. ليصبح في تعز والبيضاء، مناطق الوسط، دعماً بالتّقطير، شبه معدوماً. الأمر الّذي كان يُظهِر الجيش متمفصلاً لعدد من الجيوش الصغيرة، أو أشبه ما يكون بتكوينات ميليشياويّة بنكهة قوىً نظاميّة.

ولم تمنحني النّجوم أيّما إجابات، فنزلت، حزيناً، إلى غرفتي.

2

وحده الزّمن اليسير الّذي ظللنا نقضيه بعد كلّ ظهيرة أمام الشاشة، ننظر في حُطامنا، وحده كان يُجعّد تلك الصفحة السّاكنة من الملل الطّاغي على أرواحنا. نجتمع بغرفتنا تلك لابتداء المقيل، نشاهد موتنا اليوميّ المعنونِ لكلّ القنوات التلفزيونيّة.

تهوين الدّم، تسويغ الموت. لا أجد توصيفاً أدقّ من هذا للمحتوى الإعلاميّ لهذه المرحلة. يكاد الفارق يكون محصوراً بمستوى الكفاءة، كفاءة تبرير القتل، بمنحه مباركة دينيّة ما أو بتغطيته بواحدة من كلمات الضباب: كالوطنيّة والتضحية والفداء وغيرها.

القنوات التابعة للشرعية كانت تخصص جُلّ وقتها، آنذاك، لتغطية ما آلت إليه صنعاء وقد غدت أشبه بمقلب نفايات كبير. كان عمّال النّظافة قد أضربوا عن العمل، ما جعل القمائم تتكدّس على جنبات الشوارع كتلال صغيرة. وهو ما تسبّب، من وجهة نظر خبراء، بانتشار الكوليرا، الوباء الّذي ما انفكّ يستطير في الأنحاء، الأمر الّذي استدعى، ككلّ مرّة، نعيق الأمم المتحدة. تتذرّع بتردّي الوضع الإنسانيّ لتمرير سياسات ومخططات الكبار. من بين كلّ النقاشات الّتي لطالما خضناها، وحده الدّور المشبوه لهذه المنظّمة كان نقطة اتفاقنا جميعاً.

"إنّها المنظمّة الّتي أُنشئتْ عقب الحرب العالميّة الثانيّة، ذلك الحدث المفصليّ الّذي تشكّل على إثره النّظام العالميّ الحاليّ، لتكون

أبرز الوسائل الضامنة لبقاء الفريق المنتصر منتصراً إلى الأبد، والمهزوم مهزوماً إلى الأبد.

إنّ هذه المنطقة، الشرق الأوسط، بالنّظر لحيويّة موقعها كمكان وسط من العالم، يجب أن تظلّ على ما هي عليه، باعتبارها أكثر المناطق غنىً بالمواد الخامّ وواحدة من أكبر الأسواق الاستهلاكيّة. هذا ما اتّفق عليه الكبار منذ أمد. وهو مظهر طبيعيّ من مظاهر التدافع، القانون الأوضح في الاجتماع الانسانيّ.

والأمم المتحدة، بوجهها الظاهريّ الّذي يسوّقه إعلامها بوصفها حارسة لحقوق الإنسان، ونظامها الباطنيّ الّذي تكرّسه لحماية مكتسبات الأقوياء، إنّما هي واحدة من أدوات تغطية وتمرير كلّ هذا الظلم الّذي تعانيه شعوبنا المنكوبة. ما أن تشتعل حركة تحررية هنا أو هناك، إلّا ويتهافت إليها هذا الكيان، ماضياً في تمييع قضّيتها حتّى إخمادها. يبيعها الوهم بابتسامة مظهرها ملائكيّ وخلفها يقبع الشيطان.

إنّ أخطر ما يحاول هذا النّظام تكريسه في أذهاننا أن إرادة الشعوب لم تعد العامل الحاسم لتغيير مصيرها، بل تَوافُق هذه الإرادة مع مصالح الكبار المتحكّمين".

كانت هذه أبرز ملامح نظرتنا الموحّدة إزاء هذه المنظّمة. وقد ظللنا نتطيّر من أيّ ظهور للمبعوث الأممي لبلادنا ومن خطابات الأمين العام للأمم المتحدة بشأن قضيّتنا (المحصورة غالباً في التعبير عن

قلقه الشخصيّ) ومن جلسات مجلس الأمن. كلّما برزت أمامنا إحدى هذه المسمّيات، لاحت لنا في الأفق مؤامرة ما.

أيضاً القنوات التابعة للانقلاب كانت تركّز أغلب تغطيتها على الوضع المأساويّ لصنعاء. ولكن، بالطّبع، من زاوية أخرى. فهي تحيل كلّ الأسباب للتحالف العربيّ، وتستنجد العالم للحيلولة دون المزيد من الخراب.

لقد كان اليمنيّ يحتضر كلّ يوم، ولم يكن أحد يهتمّ سوى لمقدار ما يمكنه استثمارها لصالحه من شهقات، ليثبت للعالم صوابيّة تموضعه، العالم الّذي لم تعد الإنسانيّة بالنّسبة له سوى قناع، والّذي غدا وحشيّاً أكثر من أيّ وقت مضى.

الوقت المتبقي لوسائل إعلام الطرفين، كانت تسخّره للمزيد من شحذ العواطف، إمعاناً في تسويغ الموت وتهوينه. وكانت التابعة للانقلاب أكثر احترافاً في ذلك. أضحى من اليسير ملاحظة كم أنّ هذا الضّخ اللّا مسؤول للكراهية، لاستنهاض الضغائن، للتحريض على المزيد من الإيغال، لم يعد يحمل سيما التكتيك الآنيّ، بل أخذ يكتسب كلّ يومٍ ملامح التنظير وعوامل التجذُّر.

كانت هذه القنوات تتناوب على ثلاثة أنواع من المشاهد: الأوّل يعرض بؤس الوضع المعيشيّ للشعب، والّذي فاقمته الحرب لحدود مُفزعة. والثّاني يستعرض إنجازات عسكريّة صغيرة، مجزوءة، يظهر فيها المقاتلون، أمام الكاميرا، بمعنويّات عالية. ويتمّ الحديث عن الضحايا بقدر كبير من الإجلال، باعتبارهم نماذج اقتداء. ولا بدّ، بعد الانتهاء

من سرد مآثر الضحيّة، من الإتيان بأحد أقربائه ليتحدّث، بحماسة، عن الاستعداد للمزيد من التضحية، للمزيد من الاستبسال، للمزيد من الدّم. أمّا النّوع الثالث، فمشاهد مصوّرة من الجوّ، تُعرض ببطء وبتأثيرات بصريّة عالية، لمقابر شاسعة، تتراصّ القبور على صفحتها بترتيب أنيق. مقابر مكسوّة بالعُشب وبالأزاهير.

كان هذا التناوب دقيقاً ومكثّفاً. ويمكن ترجمته على النحو التّالي: تعالوا أيّها البؤساء، تعالوا. لم يَعُد من داعٍ لبقائكم بعالم يجرّعكم، كلّ لحظة، صنوفاً من المرارات. هلمّوا لجبهات القتال. سنمنحكم هناك ما يسدّ رمقكم، والكثير من الاحترام أيضاً. وإن متّم، فإلى الجنّة. انظروا. إنّها جنّة خضراء، مُتّسعة، ومُبهجة. تبدأ من هنا، من هذه القبور الأنيقة!

أمّا وسائل إعلام الشرعيّة فكان أداؤها هزيلاً. وأخذ حنق كبير يعتمل في نفوس أغلب المنتمين لمعسكرها جرّاء ذلك. لقد ظلّ هذا المنتمي يشعر ـبعيداً عن صوابيّة المادة الإعلاميّة أو خطئهاـ بأن الانقلاب متفوّق في العمل الإعلاميّ والحقوقيّ لقضيته. وكان ما يزيد من تحسّره أن الواقع يغصّ بالقضايا الحقيقيّة والّتي لا تحتاج لتنقيب، والكفيلة بتعرية الانقلاب تماماً سيّما في الجانب الحقوقيّ، والّتي ظلّت الشرعية متراخية في إبرازها، محيلة هذا الدّور لمؤسسات أهليّة ناشئة، بلا خبرة، وتنطوي على قدرٍ بائس من الإمكانات الماديّة.

ففي قضيّة كقضيّة المختطفين مثلاً (الّذين كانت المنظمات الحقوقيّة قد أحصتهم في نحو عشرة آلاف)، لم تُظهر فيها الشرعية، بأيٍّ

من المحافل الدوليّة، ولو الحدّ الأدنى ممّا كان يُنتظَر منها. لم يكن لها أيّما جهد حقيقيّ وملموس لتسويق ملفّها لدى المنظمات ذات التأثير. وكانت هذه الهشاشة تُصيب المنتمي بالإحباط فلا يعود بوسعه، وهو يفكّر بتقصيرٍ كهذا، سوى تقيّؤ الشتائم على وجوه المسؤولين، وقد لاحت له الشتيمة هي التعبير الرّافض المتاح.

بأحد أيّامنا الكئيبة تلك والمملّة، وبينما كنا نتأهّب لمغادرة غرفة المقيل للعودة لأعمالنا، استوقفنا فيديو مؤلم تبثّه إحدى القنوات. يُظهِر مجموعة من النّسوة يتعرّضن لصنوف من الأذى اللفظيّ والجسديّ في معرض إقامتهن وقفة احتجاجيّة أمام أحد سجون الانقلابيين بصنعاء. يطالبن فيها بالإفراج عن ذويهنّ. وقد لحظنا من قحطان تأثُّراً بالغاً. أخذ ينشج، ويمسح، بالطرف المدلى من الشال الّذي يتعمّمه، دموعاً غزيرة. أربكنا الأمر. نعم، كان مشهد النسوة مؤثّراً ويستحقّ تلقياً كهذا. لكنّا لم نكن رأينا منه مثل هذا التأثّر، رغم سيل المشاهد الصّادمة الّذي سبق وعبرناه معاً. استفسرناه. وقد أوجعتنا إيضاحاته كثيراً.

بعد إتمامهم الانقلاب، اختطف الحوثيّون أحد أولاده، ضمن حملتهم الموسّعة ضدّ الناشطين والسياسيين الّذين لم يكونوا معهم على وفاق. شاب عشرينيّ مفعم بالحياة. ومنذ لحظة اختطافه، باءت كلّ الجهود الّتي بذلها الأب لمعرفة مكانه والإفراج عنه بالخيبة.

بعد شهورٍ من النّزف واللا جدوى، اقتنع قحطان أن الحلّ لمصيبته هذه لن يكون سوى ضمن الحلّ الشامل لمصيبة البلاد ككلّ.

ولعدم انتمائه السياسيّ، أمكنه البقاء بصنعاء لمزاولة مهنته في التدريس، بأقلّ قدر من التضييق. ولم تكلّ يداه يوماً عن الطرق على الأبواب الّتي ظنّها قد تنفتح ولو على بصيصٍ يقوده إلى ابنه. زوجته أيضاً تعمل في حقل التدريس. وقد ظلّا على دأبهما هذا لشهور متواصلة. يذهبان كلّ صباح لمدرستيهما، رغم أن الرواتب أخذت تترنّح إلى أن سقطت تماماً. ومنذ عودتهما من الدّوام، يقضيان ساعاتهما تحت سياط القلق إلى أن يحيلهما النّوم لجحيم الكوابيس.

ولم يكن ليفكّر أبداً بمغادرة منزله لولا تلك الحادثة الّتي تعرّض لها صبيحة يوم دراسيٍّ كئيب.

كان يومها، ككلّ زملائه المدرسين، واقفاً أمام الطلّاب بطابور الصباح، حين فوجئ، كالبقيّة، بمجيء عدد من الحوثيين، محاطين بحراسة مشدّدة. كانوا قد نسّقوا مع مدير المدرسة الّذي لم يكن بوسعه سوى الرّضوخ. وقد قدّمهم هذا المدير باعتبارهم مجموعة من الأبطال المدافعين عن البلاد ضد مخرّبي الدّاخل والغزاة المتهافتين من الخارج. ليسلّم الميكروفون بعدها لمن كان يبدو زعيمهم، فيبدأ هذا في سرد ما سمّاها الأخطار المحدقة بالبلاد، والمتمثّلة بالسعي "الصهيو أمريكي" لاستلاب عقيدة هذه الأمّة وخيراتها. ويستنهض، من ثمّ، عاطفة الطلاب للّحاق بجبهات "العزّة والكرامة". هناك سيمكنهم أن يتعلّموا أموراً أكثر أهميّة من هذه الّتي في صفحات الكتب. واستتلى بدعوة الجميع للمساهمة في رفد الجبهات بالمال. "كُلّ حسب إمكانيّاته. المهمّ

أن لا يحرم أحدٌ نفسه هذا الأجر العظيم". ليبدأ باقي أفراد الطّاقم الزّائر بالمرور على طوابير الطّلبة بصناديق بلاستيكيّة، منتظرين الدّعم.

وأخيراً، أمر هذا المستحوذ كليّاً على الميكروفون بترديد الصّرخة الحوثيّة وراءه. لتطير إليه على الفور حذاء قحطان الّذي كان يستمع له منذ البداية وتغلي دماؤه.

ورغم أن عدداً من الأحذية قد ساند حذاء قحطان في غزوته هذه، إلّا أن أفراد الحراسة تمكنوا من احتواء الأمر سريعاً. أطلقوا عدداً من الأعيرة الناريّة في الهواء، مُخلين أرضيّة الطّابور إلّا من المدير والزوّار وقحطان الّذي كان اثنان منهم كتّفاه لحظة ابتداء تحليق حذائه.

وبينما أغلبيّة الطلاب والمدرسين ينظرون من نوافذ غرف المدرسة، شرع الحوثيّون في ردّ الصفعة لقحطان. فبعد أن انهالوا عليه ضرباً حتى تمزّقت ثيابه، أوقفاه الاثنان ذاتهما اللّذان كتّفاه ابتداءً. أسنداه. ليخلع رئيسهم حذاءه ويدمي وجهه بعشرات الصفعات. أغمي عليه واستمرّ الرّجل في صفعه بشكلٍ هستيريّ. لم يجرؤ أحد على التدخّل. فقط حين أشفى الرجل غليله، وبعد أن أفلتاه زبانيته ليسقط على الأرض كقماشة مخضّلة، نزل إليه بعض المدرسين والطلاب. منحوه بعضاً من ثيابهم وأخذوه إلى بيته. ليدرك حينها أن لا مُقام له بصنعاء بعد.

لم يكن الوضع مواتياً لينزح مع زوجته وأولاده. سافر دونهم. وبقيت زوجته لتنشئ لاحقاً مع عدد من أمهات وأخوات بعض المختطفين رابطة ابتدأن من خلالها أنشطة تندرج في خانة النّضال

السلميّ. لكن حتى هذا النّوع من النّضال لم يعد متاحاً. فهذه المرأة الّتي شاهدناها في الفيديو، تنتحب جرّاء ما تعرّضت له وزميلاتها من تعنيف لفظي وجسديّ، لم تكن إلّا زوجة قحطان.

كان يوماً عصيباً. قضيناه واجمين، دونما أحاديث. فبقدر ما كانت آراء قحطان تؤثّر فينا وتجتذب عقولنا بكلّ نقاش، كان بكاؤه أيضاً مؤثّراً على عاطفتنا. لا أكثر إيلاماً من النّظر في لحية بيضاء بللتها الدموع، دموع القهر والعجز.

وبالرّغم من ذلك، فقد كان اليوم التّالي بالنّسبة لي جميلاً. كان مضى على آخر لقاء لي مع نشوان قرابة الثلاثة أشهر، منذ مغادرته سكن الجرحى وعودته للجبهة. اتّصل بي صباحاً وأخبرني بأنّه ينتظرني ورفاقه بالفندق المعتاد. لم يكن وضع العمل يسمح بمجيء معاذ أيضاً فانطلقت إليه وحدي.

وجدته كما هو دوماً، مترعاً بالحياة، بالتفاؤل، ومجللاً بالهيبة. طوال النّهار اعتلكنا الأحاديث ذاتها الّتي لهذه الفترة. يسألني عمّا طرأ في الشؤون الإداريّة للجيش وأسأله عن مستجدّات الجبهة، وهكذا.

في المساء، وبينما نتنقّل من قناة تلفزيونيّة لأخرى، استوقفنا برنامج في إحداها. كانت حلقة مخصصة للأسرى من الأطفال. وكان أنس، "أبو الكرار"، وجهها الأبرز. تحدّث عن فصول من استغلال الحوثيين لوضع أسرته الاقتصادي المتردّي، والّذي أثمر التحاقه بجبهاتهم. ثمّ عرج على جملة من التدريبات الّتي أخضعوه لها مع أمثاله، ونوع التعبئة الدينيّة الّتي انتهجوها معهم.

تابعناه باهتمام. وختاماً، قرر نشوان أن نزوره جميعاً في الغد، لحيث يتلقّى مع أمثاله من الأطفال برامج إعادة التأهيل. ونمنا على ذلك.

غير أنّا استيقظنا صباحاً على اتصال هاتفيّ قضى بعودته وزملائه فوراً إلى الجبهة. وقبل أن يمضي، أعطاني مبلغاً ماليّاً أمرني بأن أذهب به إلى أنس، وأن أبلّغه تحاياه، وأخبره بأنّه سيزوره بأقرب وقت ممكن.

وقد أخبرت أنس بذلك حين ذهبت إليه بعد الظهيرة.

3

لم يمضِ شادي بعيداً في كتابة الرواية. تعثّر بعد صفحتين، وبقي يشكو، لأيّام كثيرة تالية، ما كان يسمّيه انقطاع الوحي. وقد ضقت به ذرعاً، لكن لم يكن لي من مواساته بُدٌّ. لم يدم بؤسه هذا طويلاً، فقد صُرِفَت الرواتب أخيراً. نعم. لقد كان لهذا الحدث كلّما هبّ _وكان نادر الهبوب_ تأثيراً سحريّاً على الجميع. ينسون همومهم ليومين أو ثلاثة، قبل أن تعود لتتضخّم شيئاً فشيئاً ككرة الثّلج.

كفّ صابر عن ثورته. أرسل لأهله نصف راتبه وأبقى نصفه ليكون مصاريف سفره الّذي أقدم عليه بعد يومين إلى جبهات الحدود. بالنّسبة لقحطان، قرر اكتراء شقّة صغيرة. كان قد اتفق مع زوجته أن تسافر إليه، هي والأولاد، بأقرب وقت ممكن. لكنّه ظلّ في حاجة لمزيد من المال ليتسنّى له ذلك. لقد غدا إيجار شُقّة سكنيّة صغيرة بهذه المدينة يداني المبلغ الّذي كان يُدفع إيجاراً لفيلّا شاسعة بأرقى أحياء صنعاء، أيّام عزّها. أمّا عنّي، فأرسلت نصف راتبي لجدّي وجدّتي. أجزل لي جدّي الدّعاء، وأحزنني أنّي لم أتمكّن من التحدّث إلى جدّتي. كانت حينها خارج البيت.

بعد أيّام قليلة، وكانت الرّواتب قد تبددت، عاد شادي لينحت في الرواية ويتوسّل السماء وحياً. إلى اليوم الّذي فوجئ فيه باتصال من

زينب. كان زوجها قد قُتِل، قبل أسبوع من ذلك، بإحدى جبهات تعز.

أخبرَتْهُ عن الجحيم الّذي عاشته منذ ارتباطها، عن الحصار الّذي ضُرِب عليها من أهلها ابتداءً ثمّ من زوجها وأهله. سجنوها في البيت ومنعوا عنها أيّ من وسائل الاتصال. وكذلك عن زفافها الّذي كان أشبه بجنازة، وعن صراخها المستمرّ بوجه زوجها بأنّها لم تحبّ في حياتها سوى رجل واحد هو شادي، ولن تحبّ سواه.

حدّثته بنبرة مُترعة بالعاطفة. وهمستْ بأنّ زوجها لم ينَل منها سوى بِكارتها، أمّا روحها فقد ظلّت عصيّة عليه. واختتمت بالقول أنّها لن تطالبه بشيء، فقط بهذا القدر اليسير من التواصل، تستردّ به بعض أنفاسها الّتي خنقتها الشهور السّابقة.

لم أعرف، يومها، كيف أستقبل هذا الفيض العاطفيّ الّذي مضى شادي يسرده لي، بعينين مؤتلقتين، وبنبرة يتعذّر وصفها. كان متفاجئاً، فرحاً، مبهوراً، وخائفاً في آن.

ومُذّاك، لم يعد شادي هو الّذي عرفناه طوال الشهور السّابقة. انتحى ركناً قصيّاً ولم يعد بوسعنا مشاهدته أو الحديث معه إلّا لِماماً. أقلع تماماً عن كتابة الرواية ولم يعد يتحدّث عن الشّعر أو الفن. تظلّ عيناه ملصوقتين بشاشة هاتفه على الدّوام. يغشاه صمت القبور. وإن تحدّث إليه أحدنا، يرمي له بجملة أو اثنتين بنزَقٍ كبير، كمن يدفع عن نفسه أذىً. وبدأ يتفلّت كثيراً عن عمله، وإن حضر فبنصف وعي. وقد عوقب كثيراً بسبب ذلك، دونما جدوى.

لم أعد أطيقه. وقد وددت كثيراً مصارحته بأنّ بقاءنا، بعد، بالغرفة ذاتها بات يؤذيني. لكنّي ظللت عاجزاً عن مكاشفة كهذه. وأخذتْ بعض تصرّفاته تكتسب طابعاً مقرفاً. أكثرها إثارة لاشمئزازي، طريقته في اختتام لياليه. يغوص بهاتفه تحت بطّانيته، وما يلبث يَفِحّ ويتأوّه. هنيهة، وتختلط أصوات نشوته مع انزلاقات كفّه على قضيبه. ينام بعدها، بينما أظلّ مُسَهّداً. أحتسي أيماناً مغلّظة بأنّي سأطرده من غرفتي صباح الغد، الأيمان الّتي ما انفكّت تبخّرها شمس كلّ يومٍ تالٍ.

بإحدى ليالينا تلك، كنت أتصفّح على شاشة حاسوبي كتاباً حين بدأ ممارسته هذه الّتي أضحت معهودة. كان ما يزال على توقيت ذهابي للعمل زُهاء ساعتين. لكنّي اضطررت، تحت وطأة اشمئزازي، للخروج فوراً، صافعاً الباب بقوّة.

كان الجميع ما يزال على عمله. تهالكت على أحد الكراسي وأسلمت جسدي للاسترخاء، الاسترخاء الّذي ما لبث عبداللطيف أن بدّده بصراخه: "ليس معقولاً، ليس معقولاً أبداً!".

كان قابعاً خلف حاسوب العمل، على المكتب الّذي يُفترض أنه لشادي. منذ بدأ هذا الأخير تلكؤه، صار عبد اللطيف هو القائم بأغلب أعماله. انتزع انتباهنا جميعاً بصرخته هذه. وقبل أن نستفسره، أعقب، محملقاً بإحدى صفحات الموقف القتاليّ الوارد لتوّه من الجبهة: "إنّه زين العابدين. لقد استشهد بالأمس، في نِهم!".

هرعنا إليه، أنا ومعاذ، وتجاذبنا هذه الصّفحة، مشدوهَين. إنّه بالفعل زين العابدين. وبحركة تلقائية موحّدة، التفتنا صوب قحطان الّذي لم يكن أبدى أيّما تأثّر.

عرف مغزى التفاتتنا هذه، فبادرنا: "وماذا إذاً؟! فلنفترض أن ظنّكم بأنّه قد استشهد دفاعاً عن الجمهوريّة والشرعيّة في وجه أبناء سلالته، هو الحقيقة. لن يعدو كونه نشازاً. والنشازات لا تنال من صحّة القاعدة. لن تتضعضع قناعتي بأنّ هذه السلالة هي وباؤنا الأخطر إلّا حينما تُعلن بشكلٍ جماعيٍّ تخليها عن أسطورة النّسب النبويّ وحقّها الإلهيّ بالحكم. ولأنّ هذا لن يحدث أبداً، سأظلّ على قناعتي. ما أدراكم؟ ربّما كان في الجبهة لمهمّة استخباراتيّة ما فقضى في سبيلها. أراهنكم أنّ هناك من يدوّن اسمه الآن لدى المعسكر الآخر باعتباره شهيداً. كما تدونونه أنتم هنا بالصفة ذاتها". مضى في حديثه مبتسماً، بينما يقضمني أسىً شرس. كلّ كلمة قالها، كانت تفصح لي عن أعماق لا متناهية للحالة الخطرة الّتي صِرنا إليها.

وقد ظللتُ حزيناً لأيّام. تسوطني النّدامة لإهمالي زين العابدين طوال فترة إقامته بيننا. صحيح أنّه كان صموتاً ويبدو عليه النفور من العلاقات الوثيقة ومن صخب النّقاشات، لكن كان ينبغي عليّ التسلل لأعماقه بأيّة طريقة. لقد كان منطوٍ، لا شك، على ما يستحقّ عناء التنقيب. لكن الأمر قد انتهى الآن، ولم يعد التحسُّر يُثمر شيئاً.

بعد أيّام من هذا الحدث، اجتمع بنا مدير الدّائرة. حدّثنا كثيراً عن الوطن، عن التضحية في سبيله، وعن الأمانة الملقاة من الشّعب

على عاتقنا، الشّعب الّذي ينتظر بزوغ كتائبنا على صنعاء بأقرب وقت ممكن. ثمّ أخبرنا، كمن يهمس بسِرٍّ، بأن تحرّكات هائلة ستحدث الفترة القادمة بمختلف الجبهات. لقد غدا التّحرير الشّامل للبلاد وشيكاً، ولن يحول دون مِضائنا حائل. وإذا كان الأبطال في الجبهات يبذلون وسيبذلون، بعد، دماءهم، فينبغي علينا أن لا نكون أقلّ بطولة منهم. صحيح أن أعمالنا مكتبيّة، هكذا مضى يتحدّث، لكن إذا ما اجتهدنا في هذه الأعمال فإن دورنا لا يقلّ عن دور المقاتلين في شيء. فبالنّهاية لولا تفانينا هنا لما أفادت بسالتهم هناك شيئاً ولا أثمرت.

ليختتم هذا الاجتماع بدعوتنا، نحن ضبّاط وجنود الدّائرة، لصيام يوم الغد، تطوّعاً لله واستدراراً للنّصر.

وبالطّبع، صُمنا جميعاً، باستثناء شادي. لكنّه، وإن كان قد أفلح في التملّص من الصيام، كونه لم يكن نشاطاً إجباريّاً، لم يستطع إزاء المحاضرة، الّتي ألقاها علينا أحد ضباط دائرة التوجيه المعنويّ بعد صلاة العصر، إلّا الحضور. كان حضورها إجباريّاً.

كانت الغرف المكوّنة لمبنى الدّائرة، الطّابق الّذي يعلونا، متحلّقة حول صالة شاسعة، بلا سقف، مفروشة بالحصير، تمّ اتّخاذها مصلّىً. أمَّنا فيها المحاضر، ليشرع في وعظنا ما أن سلّم.

حدّثنا، بعاطفة فيّاضة وبصوت متخشّع، عن خطر الإثنا عشريّة على المجتمعات الإسلاميّة، عن المشروع الصفويّ، عن فضل الجهاد وما أعدّه الله للشهداء من نعيم أخرويّ. وأخيراً، مضى يحكي بعض

القصص المدرجة بخانة الخوارق، والّتي هي، حسب توصيفه، "كرامات" حدثت لبعض مقاتلي جيشنا في العديد من المعارك بامتداد البلاد.

ولم يُنهِ محاضرته إلّا والمغرب قد دنا. لننزل بعدها لغرفة العمل، حيث قضينا الوقت حتى الإفطار بمناوشات كلاميّة كان معاذ وشادي طرفَيها الأبرز.

بالنّسبة لشادي، اعتبر المحاضرة برمّتها كارثة. "أين الوطن في ما قيل؟!"، هكذا مضى يقارع معاذ، "إن هذا النّوع من التعبئة يؤسس لحرب مُستدامة. أخبروني، بربّكم، ماذا لو أن جميعنا، نحن أفراد الجيش، اقتنعنا بالتّوصيف الّذي أسمعنا إيّاه هذا المحاضر، هل سنقنع بانتهاء الحرب بمجرّد عودة الشرعيّة إلى الحكم وزوال الانقلاب؟ طبعاً لا. سيظلّ أولئك في نظرنا إثنا عشريين، محض امتداد للمشروع الصفويّ، علاقتهم بأبي بكر وعُمَر ليست جيّدة ويسبّون عائشة. وكلّ تلك الأمور الّتي ساقها إلينا كدواعٍ لازمةٍ للقتال. سيظلّ علينا مناجزتهم حتى يتخلّوا عن عقائدهم. وتعرفون كم هو مستحيل أن يحيد المرء عن ما يعتبره ديناً أو جزءاً منه. ستستمرّ الحرب، إذاً، وتتجذّر الكراهية. وعليه، لا يمكنني اعتبار هذه المحاضرة سوى إمعان في توطيد الأيديولوجيا الدينيّة، الأساس الّذي بُنِيَت عليه مأساتنا هذه".

وقد جابهه معاذ بمرافعة طويلة. ابتدأها بالقول أنّ الدّين لطالما كان هو المتحكّم بالسيرورة البشريّة. وأنّه ما يزال بزمننا هذا هو المتحكّم أيضاً، وإن بدا لبعض المحلّقين في الفضاءات النظريّة – في غمزة لشادي – غير ذلك. مستشهداً بأقوال منسوبة لعدد من

القيادات السياسيّة الغربيّة في عصرنا الحديث. وصّفوا فيها الصراع الحالي بيننا وإيّاهم، بلحظات انفعال، بأنّه نابع من دوافع دينيّة. واستتبع أن الاجتماع البشريّ لن يخلو من التدافع يوماً، وأن الحروب ستستمرّ إلى الأبد، وأن الامتحان الحقيقيّ للفرد يتعلّق بمكان اصطفافه، بصوابيّته من عدمها. مضيفاً أن صراعنا هذا سيظلّ على شراسته طالما ثمّة مذاهب دينيّة تحمل في جوهرها حتميّة التصادم مع المذاهب الأخرى. حيث بعضها لا ترى قيامتها سوى على ركام البعض الآخر. وعزا ذلك لما سمّاه "زلل" بعض الاجتهادات الدينيّة فيما يتعلّق بنظريّة الحكم. والّتي أسهم الجشع البشريّ لبعض معتنقيها، هكذا مضى في تحليله، في إضفاء طابع الأصوليّة عليها، وتسويقها، من ثمّ، للمجموع باعتبارها جوهر الدّين ودعامته الأهمّ.

واختتم مرافعته بالتعريج على الممارسة الّتي رافقت الامتداد الدّامي للحوثيين بجغرافيا البلاد، والمتمثّلة بتفجيرهم المساجد ودور العبادة المحسوبة على المذاهب المخالفة لمذهبهم. ليخلُص من كلّ هذا لنجاعة محاضرة اليوم. باعتبار الدّين هو المحرّض الأكبر على الموت الفادي الّذي هو، في ظرفنا هذا، أسرع السُبُل إلى الحسم.

ورغم أنّها المرّة الأولى الّتي نسمع فيها من معاذ منطقاً متماسكاً، إلّا أنّ ذلك لم يكن كافياً لإقناع شادي وإرضاخه. وكما في أغلب نقاشاتنا، انتهينا ببقاء كلّ فريق على رأيه. وأخيراً، ارتفع أذان المغرب، فهرعنا إلى الإفطار. وكان شادي أوّلنا!

في العشاء، رنّ هاتفي برسالة. لم أهتمّ. أبقيته بجيبي ريثما تمتلئ معدتي. ونسيت الأمر كليّةً حتى عدنا للعمل.

هناك، فتحت هاتفي على حروف من عمّي: "اتصل بي للضرورة". انقبضتُ. علاقتي معه ليست تلك التي تجعل من التواصل ترفاً، لمجرّد التعبير عن الودّ والاشتياق. كلمة الضرورة هذه شَرَطَت بطني كمبضعٍ هائل. لا شك أنّ كارثة حدثت. بأصابعٍ مرتعشةٍ، ضربت رقمه على أحد الهواتف المرصوصة أمام معاذ. ليأتيني صوته مبحوحاً.

لقد ماتت جدّتي بالأمس. تمّ دفنها اليوم. قَضَتْ بالكوليرا. جدّي منع الجميع من التواصل معي وإخباري. وقد ساعده على هذا الإخفاء ما دأبتُ عليها، التزاماً بوصاياه، من مجانبة التواصل مع أيّ من أهل القرية.

أفلتّ السماعة، تاركاً صوت عمّي الّذي كان ما يزال سارياً، يتسرّب لأرضيّة الغرفة. بينما مضى جحيم يسري تحت جلدي. رشح جسدي عرقاً كأنّما في حمّام ساخن. لم أستطع استيعاب الأمر. بقيت هكذا مقعياً، مبهوتاً. كنت بحاجة، لأتمكّن من التعبير عن فاجعتي، من عيش ألمها، لفعلٍ أكبر من مجرّد البكاء. أن أعُضّ حجراً، مثلاً، حتى تتهشّم أسناني. أن أصرخ حتى تنفجر عنقي. شيء من هذا. أمّا ذرف الدّموع فقط فلن يكون كافياً أبداً.

"جدّتي ماتت" كان هذا ردّي على السؤال الّذي ما انفكّ معاذ يردده: ماذا هناك؟!

تحلّق الجميع حولي مواسين، فأخبرتهم أنّي سأسافر في الحال. اعترضني معاذ. أخبرني أنّه يعرف أحد المهرّبين سيتكفّل بإيصالي سالماً إلى ذمار. اتصل به على الفور. "سيكون السفر مساء الغد".

وخرجت من الغرفة لأصعد إلى السطح. حاولوا أن يتبعوني فأخبرتهم أني بخير. فقط أحتاج البقاء وحيداً.

هناك، على السطح، لم تتمكن النجوم من تهدئتي. غدت بلا جاذبيّة. وأنا أحملق فيها، لم أرَ وجه العيد الّذي اعتدت دوماً من خلالها أن أراه. الليلة، فقدتُ قدرتي على التواصل معها، وربّما إلى الأبد. القمر، هذا الفاتن على الدوام، بتلألئه في محيط لا متناهٍ من العتمة، بدا لي أشبه ببقعةٍ برصاء على ظهرٍ قاتمٍ.

لا. لا أريد التفكير بجدّتي الآن. لا أريد مناغاة ملامحها. لن أطيق ذلك. سأنزل إلى غرفتي. سأنام.

ومن البعيد، من أقصى الصّحن، علا عواء مرير. عواء يحمل نبرة ألمٍ إنسانيٍّ، أقرب للنّواح. تجاوبتْ معه كلّ ذرّاتي. لكنّي نزلت ولما أتمكن، بعد، من إطلاق عواء مثله.

في الغُرفة، توسّدتُ حزني وأنشأت أحدّق بالظُلمة بعجزٍ. وحين طرق شادي الباب ليدخل للنّوم، قمتُ لأصفع الباب في وجهه وأعود لألمي. كانت أمنيتي الوحيدة أن يداهمني النُّعاس.

الفصل الرابع
السّفر

1

اعتراني الأرق. ولم أستطع كبح وعيي عن استدرار ذكرياتي مع جدّتي أكثر من ذلك. مضت هذه الذكريات تحتشد تماماً في حلقي. غدوت بحاجة لذرف الكثير من الدموع أزدرد بها تلك الغصص، ولم أحظَ بها مطلقاً.

فوق ذلك، أخذ سفر الغد يحقنني بالخوف بالتدريج. كنت أعرف أنه ليس محض سفر، وإنّما رحلة مهولة في مجهول محفوف بالمخاطر، وأن الطريق المرقّطة بنقاط التفتيش لن تتوانى في أن تسدد لي لدغة قاتلة ما أن يمكنها ذلك. وبدأت ذكريات سفري الأوّل من صنعاء تتداعى عليّ، تنزّ في أوردتي قلقاً وذعراً.

كنت يومها عائداً من الكليّة إلى الشقّة الّتي اكتريتها مع مجموعة من زملائي ببداية عامنا الجامعيّ (الّذي كان يُفترَض أنّه الأخير)، حين هاتفني جدّي، ليأمرني بلهجة حاسمة أن أغادر حالاً إلى مأرب! حاولت الاستفهام ولم يتح لي مجالاً. أخبرني أنّه أرسل لي مبلغاً ماليّاً يكفي لسفري، وأمرني بالتوجّه لاستلامه والانطلاق، من ثمّ، على الفور.

ولأنّي أعلم ما يتوفّر عليها من رباطة جأش، فقد راعني ما وجدت بنبرته من ارتباك. انطلقت لمحلّ الصرافة، تنهشني مخاوفي ممّا يمكن أن يكون قد حدث.

كنت على مرمى أيّام فقط من امتحاناتي النهائيّة. سيعني السفر إذاً إرجائي لدراستي سنة على الأقل. اتصلت ببعض أصدقائي في القرية، أتحسس الأوضاع هناك. لم أجد في كلامهم أيّ معطى يوحي لي بما يبرر هذا الأمر المفاجئ والغريب.

بالرّغم من ذلك، لم يكن منّي سوى الانصياع. أعرف أنّ جدّي لم يكن ليأمرني بالسفر إلّا لأسباب وجيهة. ولكن كيف سأسافر؟! وإلى أين؟! إلى مأرب؟! الّتي غدا مجرّد التلفظ باسمها هنا، من موجبات غضب السُّلطة؟!

لا شكّ أنّ جدّي اصطدم مع الحوثيين بطريقة ما، للحدّ الّذي يجعل من بقائي بمكان خاضع لسلطتهم خطراً حقيقيّاً. هل يهددونه بي؟ لم أستطع التكهّن أبعد. أسلمت نفسي لقدميّ تجوسان بي خلال الشوارع بينما استغرقتُ بالتفكير كيف سأتمكن من الوصول لمأرب، وكلّ خطوة إليها حبلى باحتمالات راعبة، من الاختطاف إلى القتل.

فجأة، التمع بذهني نشوان. كيف لم أفكّر به منذ البداية؟! لم يمرّ أسبوع على آخر اتصال بيننا. لمجرّد أن تذكّرت أنه في مأرب، وأنّه لا شكّ سيساعدني للوصول إليه، شعرت بخفّة، وبدأت أسير في الشارع بسرعة.

هاتفته. استقبل اتصالي بالانشراح المعهود. أخبرته باضطراري للسفر إليه، وسألته ما إذا كان بإمكانه مساعدتي لعبور كمائن الطريق.

أخبرني أن أتوجّه أوّلاً إلى الضالع، إلى قعطبة تحديداً. لديه هناك الكثير من الأصدقاء في المقاومة، سيتكفّلون بترتيب سفري

بأقصى قدر ممكن من الأمان. وضحك من امتناني، مازحاً: فلتصل إلى هنا أوّلاً بسلام، وسأستقبل منك بعدها كلمات الشكر.

أنهيت الاتصال، واتجهت لفرزة سيّارات الأجرة. ستكون ذمار محطّتي الأولى.

تهالكت على أحد مقاعد السيّارة الّتي قال مندوب الفرزة إنّه دورها، منتظراً امتلاءها بالركاب. كان الوقت عصراً. على مقربة من الفرزة (الّتي تقع بالقرب من تقاطع شارعين) ثمّة سوق قات. لقرابة النصف ساعة، ظللت أنا الراكب الوحيد. السيّارة مترعة بالضجر وبالشمس، ورأسي بالهواجس السوداء. ألقيت بنظري إلى الشارع، أتملّى ملامحه.

بمدخل السوق، ما تزال الحركة في أوجها. هناك تحديداً، يمكن للمرء ملاحظة ما يتوفّر عليها اليمنيّ من طاقة للحركة وما ينطوي عليها من موهبة في مفاوضات البيع والشراء. على مقربة من المدخل صندوقَا قمامة فاضا بحمولتهما. على الرصيف، ثمّة مجنون (أو ربّما محض شحاذ) ما يزال نائماً. متكوّراً. متوسّداً كفّيه. مفترشاً الأرضيّة. وملتحفاً ما يوفّرها المبنى المجاور من ظلال.

مجموعة أطقم حوثيّة تعبر الشارع كرياحٍ نزقة. وبين الفينة والأخرى، أسمع تحليق طائرة لم تبخل أخيراً بتقيّؤ صاروخ على مكان قريب. لم تبلغني شظاياه وإن كنت شعرتُ بالرّجفة التي أحدثها، ليس في قلبي فقط، بل أيضاً في جسد السيّارة وفي انتصابة الجسد المذعور الّذي كان قبل دقائق نائماً على الرصيف.

اقتربتْ منّي فتاة تعرض عليّ ابتياع بعضٍ ممّا يحتويها صحنها من حلويّات. كان المبلغ في جيبي من فئة الألف ريال. وكنت متأكداً أن ليس بحوزتها من المال ما يمكّنها من إعادة الباقي فيما لو اشتريت منها قطعة. وقد وجدت في كوني مسافراً في المجهول، الأمر الّذي يقتضي حرصي على كلّ ريالاتي، حجّة كافية لإلجام ضميري وأنا أكتفي بالإشارة بسبابتي للسّماء، أخبرها أن الله لا شك سيرزقها من سواي.

غمغمتْ، ربّما بشتيمة، وسحّبتْ قدميها باتجاه سيّارة رابضة أخرى. ثمّ ما لبث الرّكاب أن توافدوا. ولكن حتى بعد أن اكتمل العدد، توجّب علينا الانتظار لدقائق أخرى.

كان السائق قد غادر الفرزة بعد وصولي إليها، حاملاً جالوناً فارغاً، وقاصداً السوق السوداء للوقود، الواقعة نهاية الشارع. ولم يعد حتّى الآن.

وحين عاد أخيراً، بدا أكثر امتعاضاً من الرّكاب الّذين كان تأخّره قد بلبلهم. "ليس معقولاً أبداً، ليس معقولاً! بثلاثين ألف ريال؟! بثلاثين؟!" هكذا مضى يخاطب جالون الوقود وهو يسكبه لجوف السيّارة، قبل أن يجلس، من ثمّ، خلف المقود، هاتفاً في حنق: "ثلاثة آلاف للرّاكب الواحد". ليبدأ اللغط حيال التسعيرة بينما أغلي بحيرتي وبقلقي. صرت مستعدّاً لدفع كامل الأُجرة مقابل أن تبدأ هذه الرحلة اللعينة بالمضيّ!

وانطلقنا. وكانت صور زعيم الحركة الحوثيّة بالإضافة لصور الرئيس السابق هي آخر ما التقطته عيناي من صنعاء، من شوارعها.

كما ظلّت العبارات المنسوبة لزعيم الحوثيين تطلّ علينا بهيئة لوحات كبيرة مثبّتة على أعمدة الإنارة. وفكّرت أن صنعاء الّتي لم يعد لها كهرباء قد تكفّلت من هذه النّاحية بجعل هذه اللّوحات عديمة الجدوى، ليلاً على الأقلّ.

لا. ليس من عادتي التقاط كلّ هذه التفاصيل. بل الحقيقة أني على العكس من ذلك، أتوحّد في شيء ما، في تفكيرٍ ما، حد انعزالي التامّ عن كلمّا يتعدّى جمجمتي. لكنّي، حين تبتلعني الحيرة، حين يؤرّقني لغز، فأجدني عاجزاً تماماً عن حلّه، أميل للهروب، متلفّتاً حولي. أنقّل عينيّ في الأمكنة المحيطة، علّي أبصر ما يجتذب اهتمامي فأفكّر فيه. وقد أعمد، من أجل ذلك، لإقحام عقلي بأشياء بالغة الضآلة بل والتفاهة أحياناً. ولن أجد حرجاً هنا بالقول أنيّ قد أعقد محاكمات مطوّلة فقط عن الطريقة الّتي تمخّط بها أحدهم مرّ لتوّه بالقرب منّي!

لما صارت صنعاء خلفنا، طفا الصمت، لزمنٍ، على الجميع. صمتٌ ثخين لم تكن تخدشه سوى خشخشة الأكياس البلاستيكيّة والأصابع تمتشق منها أغصان القات، وأحياناً همس السيّدة الّتي اقتعدت مع زوجها الكرسي التالي لهذا الذي انغرست فيه. تناغي رضيعها وتهدهده.

أطرقتُ لدقائق، أنظر بين يديّ لدفتر محاضراتي. شعرت أنّه لم يعد يعنيني وقررت التخلّص منه بأقرب محطة. لن أحتاج لما يذكّرني بضياعي، الضياع الّذي أعرف منذ الآن أنّه لن ينتهي قريباً.

وخطر لي أن أهاتف جدي لأخبره بأنّي انطلقت من صنعاء، لكنّي عدلت عن ذلك بدافع من ضيق الصدر. أقحمتُ كَفيّ في جيبيّ أتحسس رُزمتَي المال (كنت قسمت المبلغ لنصفين ووضعت كل منهما في جيب. امتثالاً لإحدى الوصايا الأثيرة لجدّتي: أن لا أضع كلّ مالي بجيبٍ واحد). وأغمضت عينيّ لأغوص في سكونٍ حالكٍ.

وحين قرر السائق تمزيق الصمت، أشعل أغنية أبو بكر سالم: "يا مروّح بلادك". لا أدري كم نبتة صبّار عرّشت في حلقي طوال زمن الأغنية، أنا الّذي أسير بهذه اللحظة بذات الطريق الّتي لطالما أخذتني لبلادي، لقريتي، والمعنيّة الآن بإيصالي لبلاد بعيدة لم أزرها قبلاً، وما زالت تفصلني عنها مسافة مشرعة على شتى المخاوف.

ولم نبلغ ذمار إلا في حلول العِشاء. على مدخل المدينة، تحديداً أمام بوّابة الجامعة، استوقفتنا نقطة تفتيش. أغلب أفرادها يرتدون الزيّ العسكريّ لما كان يُسمّى "الحرس الجمهوريّ"، القوّة العسكريّة الّتي كان يقودها نجل الرئيس السابق، إبّان حكمه. على أكتافهم تلوح رُتَب متفاوتة. لكنّهم بدوا بلا حول ولا قوّة. كان جِماع الأمر بيد الاثنين المرتديَين ثوبين ملوّنين وكوتين مُخطّطين، الموسومة أسلحتهما بشعارات الحركة الحوثيّة. واللّذَين شرعا باستجوابنا ما أن استوقفا السيّارة.

تعاملا معنا بصلف كبير. مضيا، لنصف ساعة، يسائلاننا كما لو كنّا آتين من كوكبٍ آخر. وحين استنفدا أسئلتهما، رميا هويّاتنا للمقعد الخلفيّ، كمن يرمي قمامة. وأمرا السائق بسرعة المضيّ.

لم أكد أصدّق. طفقتُ أعقد مقارنة بين ذاك التعامل النّاعم الّذي حظيت به، بهذه النّقطة ذاتها، حين مررت بها قبل أشهر، في سفري، إثر الانقلاب، إلى صنعاء، وبين هذا الّذي صُفِعتُ به الآن. أتذكّر تلك الدّعوات الّتي مضوا يحفّوننا بها، يسألون الله لنا سفراً مريحاً ووصولاً آمناً. حتّى أن أحدهم لم يبخل، حينها، على بعض العائلات المسافرة بأشرطة من الحبوب العلاجيّة المضادّة للغثيان. كان تعاملاً ملائكيّاً جعل كثيرًا من الركّاب يجزمون أنما حدث لم يكن انقلاباً وإنّما فتحاً عظيماً مباركاً.

وصلت السيّارة لمحطّتها الأخيرة وكان الوقت قد تأخّر. ولأنّي أكره السفر ليلاً، اكتريت غرفة بأوّل فندق صادفته. "سأُمضي ليلتي هنا وأستأنف رحلتي صباح الغد".

ومنذ انطلقتُ صباحاً إلى أن وصلت قعطبة بحدود العصر، ظلّ المشهد يكرر نفسه، بشكلٍ يثير القرف. لا اختلاف سوى في كُنى القائمين على نقاط التفتيش. هنا "أبو حرب"، وهناك "أبو رعد"،...، وهكذا. محض غوص بمستنقعٍ من الكُنى.

في قعطبة، استقبلني أصدقاء نشوان بالكثير من الحفاوة. لم أتوقّع له شعبيّة كهذه. هناك، توجّب عليّ انتظار يومين آخرين، حتى اكتمال العدد من المسافرين المشجّع لانطلاق الرحلة. قضيتهما بواحدٍ من مقرّات المقاومة كان هذا الّذي أحالني إليه نشوان نزيله. في اليوم الثالث، صِرنا ثمانية. وانطلقنا عصراً.

كان الوضع في عدن شديد الاضطراب. لم تكد تتخلّص من الوجود الحوثيّ حتى اندلعت بأنحائها الكثير من أعمال العنف. ودوماً ما كانت الأجهزة الأمنية تبدو عاجزة حيالها. بل أن الكثير من أصابع الاتّهام كانت تشير أحياناً لهذه الأجهزة ذاتها. معظم هذه الأعمال كانت تستهدف المسافرين من المناطق الشماليّة. أمّا حضرموت وجزء من أبين، فتحت سيطرة القاعدة.

كان الواقع يقول أنّ قرار أحدهم عبور هذه البلاد يشبه قراره المشي حافي القدمين على سجّاد من الجمر. كنّا نعرف ذلك جيّداً، تماماً كما نعرف أن ليس لنا من هذا السّفر بُدٌّ!

التزمنا خطّاً إسفلتيّاً يغنينا عن ولوج مدينة عدن. حين أظلم الليل، كنّا غدونا بمحافظة أبين. نمنا بأحد المساجد، أطلّ علينا هناك على شاطئ الطريق، واستأنفنا السّفر بعد الفجر.

بعد ساعتين من انطلاقنا، وجدنا أنفسنا بنقطة تفتيش تختلف ظاهريّاً عن تلك المعهودة بمناطق السيطرة الحوثيّة. صِرنا الآن تحت رحمة القاعدة. أوقفوا السيّارة. أنزلونا عنها. وابتدأوا تفتيشاً دقيقاً.

كانوا أكثر من عشرة، مدججين. يرتدون الزيّ المميّز لشعوب الهند وباكستان وأفغانستان. شعورهم مسترسلة ومُعتنى بها. يمضغون أعواد أراك ضخمة. ويستمعون أناشيد هادئة اللّحن، كلّ كلماتها تحريض على الفداء والاستبسال.

وكنّا سمعنا كثيراً عن جرائم مروّعة اقترفها هؤلاء في حقّ مدنيين وعسكريين. بعضها شاهدناه بمقاطع فيديو. ساطنا الذّعر. بلحظةٍ ما، جفّ حلقي تماماً وشعرت بالإغماء.

قسمونا لنصفين. أربعة، أنا أحدهم، في سيّارتنا، رفقة ثلاثة منهم. والأربعة الآخرون بسيّارة أخرى تابعة للنقطة. ومضوا بنا إلى المكلّا.

هناك، دلفوا بنا المبنى الّذي كان اسمه سابقاً مديريّة الأمن، والّذي غدا "دار الحسبة". مبنى يغصّ بذوي السّمت الأفغانيّ. كلّهم متشابهون، كأنّما تقيّأهم رحِمٌ واحد. على جانبَي البوّابة من الدّاخل، مُدرّعتان. وفي وسط الساحة عدد من السيّارات، على صهواتها رشاشات ثقيلة.

أنزلونا وساقونا لجوف المبنى. أدخلونا غرفة مفروشة بسجّاد من ذاك المخصص للمساجد. على جانب أحد أركانها، الّذي بدا أشبه بمحراب، مكتب فخم. بالقرب منه، قفص حديديّ حُشِرنا فيه بانتظار مجيء ما أسموه "القاضي!".

سيقتلوننا لا شك. هذه آخر لحظات حياتنا. لم نتبادل أيّ حديث. تحاشا كلّ منّا النّظر في الآخر. مشاهدة الخوف بملامح من يتشاركك المصير، ستضاعف خوفك. اكتفى كلّ منّا بخوفه الشخصيّ، خوفه الكبير. كرهتُ جدّي. لقد ساقني للموت بيده. وتمنيتُ لو أنال من جدّتي احتضاناً أخيراً.

لم أُطِق المزيد من الوقوف، فجلست. أمسكت أحد قضبان القفص، لترعدني سُقعته بقشعريرة بلغت منّي العظم. شعرتُ كأنّما أُمسك كلّ العالم، عالم اليوم. الفولاذيّ، الرّاعب، والوحشيّ.

وجاءنا القاضي. شابّ أصغر منّي. يشكّ المرء في كونه غادر مراهقته بعد. استوى على كرسيّه وأنشأ يحدّق في ورقة كانت متروكة على مكتبه. وفجأة، نبر مسؤول رحلتنا، منادياً هذا القاضي: أحمد! لينظر الأخير، مبهوتاً، مرتبكاً، كمفضوح.

قام عن كرسيّه على الفور وأتى لإطلاق سراحنا. ولكن فقط عن القفص. سلّم على مسؤولنا، واستأذننا للقيام ببعض الاتصالات. خرج بعدها من الغرفة لتتعلّق عيوننا بوجه صاحبنا، مغسولة بالأمل، ومترعة بالاستفسارات. "سأخبركم بعد خروجنا" أجاب عن نظراتنا.

ولم يدُم غياب القاضي أكثر من دقائق. ليعود إلينا، مُعتذراً عن ما حدث، ويخبرنا أن بمقدورنا الاستمرار إلى وجهتنا.

وحين صِرنا جميعاً في السيّارة، وبعد أن خلّفنا هذا المبنى الموحش، أخبرنا مسؤول رحلتنا أنّ هذا القاضي ليس إلّا الجنديّ أحمد. أحد أبناء قريته. كان جنديّاً في ما يسمّى "الأمن القوميّ"، الجهاز المخابراتي الّذي كان يديره ابن أخ الرئيس السابق.

وكنّا قررنا، قبل انطلاقنا من قعطبة، أن نجعل من سيؤون محطّة استراحة. نُمضي فيها يومين أو ثلاثة. نتنعّم بهدوئها ثمّ نستأنف السّفر. لكننا الآن، بعد ما نزفناه من مجهود نفسيّ، لم نعد نمتلك الحس

الرومنسيّ المفضي لترفٍ كهذا. لم تتوقّف السيّارة، بعد، سوى في مأرب. حيث وجدنا نشوان ورفاقه بانتظارنا.

من يومها، لم أتخيّل أن شأناً ما سيستدعي منّي تكرار هذه الرحلة. أضحى قرار السفر مُستبعداً تماماً لديّ. لكن هاأنذا اضطررت اليوم لاتّخاذه. وكلّما أريده الآن أن أنام. يجب أن أكون غداً بأعلى مستويات اليقظة.

حين بدأ الوسن يلعق أجفاني، نَمَتْ إليّ جلبة من الغُرف المجاورة. وبالطّبع، لم أكن بوضعٍ نفسيّ يدفعني للخروج والاستعلام. ظللتُ على اضطجاعي إلى أن نمت.

لم أتخيّل أنّي سأستغرق في النّوم لهذا الحد. صحوت بطرقات خفاف من معاذ على الباب، لأتفاجأ أن الوقت صار عصراً. وأتفاجأ أكثر بالحقيبة الممتلئة جواره.

2

البارحة، حين منعتُ شادي من مشاركتي غرفتي، ذهب لأخرى. ربّما لم يكن يعرف أنّها لمعاذ. في نحو الرابعة فجراً، أكمل الأخير دوامه، ومضى لينام.

وجد غرفته مُضاءة. دفع بابها ليدخل، فتفاجأ بشادي. جالساً على كرسيّ بمنتصفها. عارياً تماماً. إحدى يديه تحمل هاتفه، ويستمني بالأخرى. استفزّه المشهد. استشاط غضباً. أغلق الباب وأمهله دقيقتين لارتداء ملابسه. ثمّ صعد لمدير الدائرة، الّذي كان على وشك النّوم، ولم ينزل إلّا بقرار قضى بإبعاد شادي عن العمل هنا.

لم يكترث شادي كثيراً. أمطره شتائم وصراخاً، ومضى يرتّب ملابسه لعودةٍ لصنعاء قال إنّه كان ينتويها منذ أيّام.

صباحاً، عَلِم الفندم بالأمر. ثارت ثائرته. منذ مجيئنا الصّحن، نشب بينه ومدير الدائرة خلاف لم يعرف أحد فحواه، لكن آثاره ظلّت ظاهرة بكلّ تعاملاتهما. ولأنّه كان يتكئ على كثير من العلاقات مع قيادات في التحالف، ظلّ المدير عاجزاً عن الإطاحة به واستبداله. وردّاً على ما اعتبره تجاوزاً من معاذ، بأن صعد بقضيّة شادي إلى المدير بينما الأولى أن يكون هو المعنيّ بها، أصدر هو الآخر أمراً بإبعاد معاذ!

وأنا أستمع من معاذ هذه التفاصيل، جثم على صدري حزن إضافيّ كبير. لقد تسببتُ بكلّ هذه المعمعة. مضيت أمضغ له اعتذاراتي

بينما يأمرني بالكفّ عن ذلك. "على كلّ حال، كنت سأغادر هذا المكان قريباً. مللتُ العمل الإداريّ. اشتقت للميدان. سأُمضي ليلتي هذه في المدينة، وأنطلق صباحاً إلى نشوان".

اتصل بالمهرّب لنعرف توقيت انطلاق رحلتي. أخبرنا أن لقاءنا سيكون الثامنة مساءً، وسط المدينة. وبعد أن ودّعْنا قحطان القابع بالأرشيف كعادته، حملنا حقيبتينا وغادرنا.

ظللنا نتسكع في المدينة إلى اقتراب موعد المهرّب. كان طقسي النفسيّ مُلبّداً. حزين لفراق جدّتي. خائف من كمائن الطريق. وبين فينة وأخرى يوخزني ضميري لتسبّبي بمشكلة البارحة. تناولنا عشاءنا في صمت، قبل أن يتصل بنا المهرّب أخيراً لنمضي للقائه.

بدا بارد الملامح. وجهه خالٍ من أيّ تعبير. قبل أن أصعد لسيّارته، انتحى بي معاذ جانباً. وضع في جيبي مبلغاً ماليّاً وأوصاني بأن أتصل به حينما أقرر العودة من القرية. سيرتّب لي مهرّباً آخر يوصلني سالماً إلى هنا. وودّعني. وما أن انطلقت رحلتي إلّا وانهمكتُ أفكّر، في قلق وخوف، بشبكات التهريب هذه. لقد ظلّ كثير من جوانبها، بالنّسبة لي، لُغزاً محيّراً.

منذ تدخّل التحالف العربي، ما لبث المدّ الحوثي أن انحسر عن مساحات شاسعة من البلاد. لكن هذا الانحسار تجمّد لاحقاً، ليظلّ الفريقان بعدها يراوحان مكانهما. غدت البلاد مقسومة لجزءين: الأكبر، الّذي خرج من قبضة الانقلاب. والأصغر، الّذي يحوي غالبيّة السكّان، ظلّت هذه القبضة مُحكَمة عليه.

ولأن النّاس لم يمكنهم في ظروف معيّنة إلّا أن يتنقّلوا بين هذين الجزءين (كان الحدّ الفاصل بينهما مسدودًا بنقاط التفتيش الحوثيّة، منعاً لتسرّب المزيد من السكّان إلى الجغرافيا المحررة، كون النّسبة الأكبر منهم كانت تلتحق بالجيش الوطنيّ)، فقد نشطتْ شبكات التهريب، تهريب النّاس والأشياء.

ورغم أن هذه الشبكات ظلّت محط شبهات كثيرة وملابسات، إلّا أن الجميع رضخ لها، بسبب الحاجة. حاجة الموجودين بمناطق الشرعيّة للسّفر أحياناً لمناطق الانقلاب، وحاجة الانقلابيين لمردودها المادّي، الّذي كان يصلهم جزؤه الأكبر بطريقة أو بأخرى. إضافة لنجاعتها كأداة استخباراتيّة.

كانت السيّارة غاصّة بأمثالي. ببداية السّفر لم يكن من داع للتوتّر. ما زلنا بعيدين عن الحدود بين الجغرافيّتين. ولكننا، وبالرّغم من ذلك، لم نتشارك أيّ حديث. لم يكن أحدنا يعرف الآخر. جميعنا ظلّ متوجّساً من أن يكون من سيتحدّث إليه عنصراً حوثيّاً يشي به فور الوصول لمناطقهم.

حين وصلنا "قانية"، المنطقة التابعة لمحافظة البيضاء، والّتي تعتبر منطقة تجاذب بين الطّرفين، كان الوقت قد قارب الفجر. نزل بنا المهرّب بأحد مساجدها وأخبرنا أن ننام فيه حتى تأتينا السيّارة الّتي ستقلّنا صباحاً إلى رداع، حيث تنتهي مهمّته معنا حسب الاتفاق. وبالطّبع، لم يكن منّا سوى التسليم لإرادته. بقينا في المسجد، دون أن ننام أو نتحدّث.

في نحو السّابعة صباحاً أتانا، ولكن بسيّارة أخرى. ما أن تكدّسنا فيها إلّا وانطلق بنا كسهم. مالَ عن الطريق الإسفلتية بعد مسافة بسيطة. لنبدأ رحلة شاقّة في طُرُق ترابيّة شديدة الوعورة. لا أعرف كم قرية اجتزناها قبل أن يقف بنا بجانب سيّارة كانت بانتظارنا على قارعة الطريق. من هنا، غدا مصيرنا رهن مهرّب آخر، بسيّارة أخرى.

بعد أن مضى بنا مسافة لا أستطيع تقديرها، لم ننتبه إلّا وقد عدنا مرّة أخرى للطريق الإسفلتيّة. استقبلتنا بعد وهلة نقطة تفتيش. تجمّدنا رُعباً، وجابهنا هو بابتسامة. عَبَر بنا دونما تفتيش. أفسحوا لنا ما أن غمس مبلغاً من المال في جيب من كان يبدو زعيمهم.

وحين لاحت لنا مدينة رداع، أمرنا بالترجُّل. لقد اقتربنا من الوصول إلى نقطة التفتيش الأسوأ سُمعة "نقطة أبو هاشم". سنلتفّ عليها ماشين، وسينتظرنا بسيّارته خلفها.

بتلك الدّقائق، ذُقتُ الرّعب ذاته الّذي ساطني بقفص القاعدة. مضينا نذرع طرقات لا نعرف عنها شيئاً، حاملين حقائبنا على ظهورنا بمشهد يذكّر بقوافل المهجّرين قسريّاً، القوافل الّتي كنت أظنّها لتلك اللحظة حصراً على شاشات السينما.

كانت الخطوة الواحدة أطول من دهر. حين عدنا أخيراً للطريق الإسفلتيّة، للمكان المتّفق عليه، بدونا كما لو نزفنا بهذه المسافة ما بقي من أعمارنا. لم تعد بنا طاقة لمزيد من الحركة. لكن الخطر الأكبر كان قد ولّى، وهذا ما منحنا بعض السكينة.

كانت أجرة الواحد منّا أربعين ألف ريال. دفعناها، بكلّ امتنان، ما أن وصلنا مدينة رداع. كان الوقت قد صار ظُهراً. مضيت مبتعداً عن الباقين كما لو مجدورين. من يدري، ربّما يقع أحدهم الآن تحت قبضة الحوثيين فيشي بي!

وجدت فرزة الباصات المتجهة ذمار ساكنة. الجميع الآن إمّا في المطعم للغداء، أو بأحد أسواق القات. دخلت أحد المطاعم واشتريت غداء لم أذُقه. فقط ليكون مكوثي فيه مبرَّراً.

بعد ساعة، بدأ الرّكاب يتوافدون للباص الأوّل. دسستُ نفسي بأحد مقاعده، لأغدو في حلول العصر بذمار. تنفستُ الصعداء أخيراً. من هنا، غدت نجاتي شبه مؤكدة. لم يعد بمقدوري احتمال المحطّات. استأجرتُ سيّارة تأخذني رأساً إلى القرية. وبدأ يداعبني ارتياحٌ ما.

الفصل الخامس

القرية

1

في النّقطة من الدّرب الإسفلتية التي تبدأ منها الطريق الترابيّة المؤدية للقرية، ترجّلت. قمر الليلة يوشك يكون بدراً. يُلقي بضوئه الشبحيّ على الأشياء، مانحاً الرؤية طابعاً أسطوريّاً غامضاً.

ما يزال عليّ قطع مئات الأمتار لأصل. ورغم أن حزني لموت جدتي ما يزال طريّاً، الحزن الّذي كان كلّ حصّتي من المشاعر طوال اليومين الماضيين، إلا أنّ فرحاً غامراً غشيني. جذلٌ استبدّ خطواتي وأكسبها خفّةً أخذت النّسائم تفاقمها لحدٍّ شعرت أنّما أمشي على أرض بلا جاذبيّة، وأنّي لو مددتُ ذراعيّ لأمكنني التحليق، دونما جهدٍ، بهذا الفضاء الّذي يعرفني جيّداً وأعرفه.

كثيراً ما عدت للقرية بعد غياب. لكن لم يحدث أن كنت، بأيّة عودةٍ، بهذا القدر من الحبور. بكلّ تلك الغيابات التي كانت تقتضيها دراستي الجامعيّة في العاصمة، كان أمر العودة، كما المغادرة، رهن إرادتي الحرّة. كان شأناً طبيعيّاً وممكناً. ولأنّ مشاعرنا حيال الممكن والطبيعيّ، تكون بدورها في حدودٍ طبيعيّة، لم يكن لي أن أحيا سعادة العودة متضخِّمةً لهذا الحدّ.

كما أنّني كنتُ مُذ وطأت قدماي أرض النزوح، الّتي هي أيضاً جزء من بلدي المنكوب، ما يقتضي، نظريّاً، أن يكون شعوري فيها بالاغتراب مخفّفاً، كنتُ مُذّاك فريسة للحنين. الحنين الّذي بلغ من القوّة

أن جعل من سعادة هذه العودة شعوراً متقدّماً على الحزن الّذي يقتضيه سببها. ناهيك عمّا حقنني بها انزياح ثقل أخطار الطريق من سكينة.

الآن، يلوح لي الجبل الّذي ترقد قريتنا عند قدميه بخضوع ابنةٍ بارّةٍ لأبٍ مَهيبٍ. من هنا بوسعي السير مغمض العينين. كلّ شيءٍ أحصيه عن ظهر قلب. كلّ حجرٍ. كلّ شجرٍ. كلّ طريقٍ. كلّ بيتٍ. وكلّ فرد. سكبتُ هنا عشرين سنةٍ من عمري، وسُكبتْ في أوردتي كلّ الملامح والتفاصيل.

المقبرة هي أوّل ما يستقبل الآتي. قد يبدو هذا صادماً لوهلة. غير أنّ الحقيقة عكس ذلك. إنّها بالفعل أجمل أماكن القرية على الإطلاق! هذا ما يحكم به سريعاً، وبطمأنينةٍ، أيّ ناظرٍ متجرّدٍ عن ما يفيض به مصطلح المقبرة من انقباض. ليس فقط لكونها المساحة الأكثر إطلالةً على الوادي الخصيب ودائم الخضرة الّذي تنسربُ مُدَرّجاته ابتداءً من حافّتها وحتّى السّيل، بل أيضاً لما دأب عليها الأهالي هنا من مبالغةٍ بتزيين قبور موتاهم، بتنضيدها وتشجير محيطها وإحاطتها بهالةٍ عظيمةٍ من القداسة. ربّما استجابةً لقناعتهم بأنّ ذويهم يموتون بعد حياةٍ أنهكتهم كثيراً، حياة ملأوا أيّامها ولياليها بأصداء خطوات حثيثة لمطاردة الرغيف وكَفافَ العيش، فيكافئونهم بمنحهم منازلهم الأخيرة بهذا المكان الظليل، الأرحب مساحةً والأكثر إطلالةً. وكأنّما لتتسنّى لهم ديمومة النّظر من مراقدهم السرمديّة هذه لما يكتنزه الوادي من جمالٍ دائمٍ أخّاذ!

فكرة المرور على المقبرة أوّلاً قبل ذهابي إلى البيت، باغتتني فقط حين حاذيتها. سيكون محزناً لو تجاوزتُها قبل أن ألقي التحيّة على جدّتي. لن يحتاج منّي تمييز قبرها جهداً كبيراً. لا أسوار على المقبرة كما لا وحشة هناك. منذ أن أدخلها إلى وصولي القبور الحديثة، الّتي لا شكّ قبرها أحدثها، سأمشي قرابة الخمسين متراً، هي المسافة الّتي يرتصّ فيها كلّ الموتى الّذين غادروا قريتنا منذ بداية وجودها، والّذين ربّما أقاموا لهم قريةً تحت الأرض هي صورة من هذه الّتي فوقها. من يدري؟!

أخرجت من حقيبتي مصباحي اليدويّ لأتمكّن من استكشاف الأماكن الّتي تُظَلّمها الأشجار المحيطة بالقبور بظلالها، ومضيتُ. لم تكن المسافة إلى قبر جدّتي هي الخمسين متراً الّتي كنت أحصيتها جيّداً قبل مغادرتي الأخيرة. كان صفاً كاملاً قد أضيف إليها. شعرتُ بوطأة حزن إضافيّ وأنا أجتازه.

باستثناء الجائحة الّتي حدّثني جدّي بأنّها اجتاحت القرية في صباه، والّتي حصدت حينها ما يقارب ربع السكّان، لم يحدث أن كان الموت الجمعيّ أو حتّى الفرديّ المطَّرِد من الأمور الّتي نعرفها. تلك الجائحة كانت مرض الجدري. كانت اليمن حينها دولتين. وكان اسم دولتنا المملكة المتوكليّة. مملكة كان في عهدها مرض بسيط كهذا يقتل ربع المجتمع. تماماً كالطّاعون في العصور الوسطى. غير أنّه حينها والجدري يلتهم ربع سكّان هذه البلاد، كانت بعض الأمم ترسل مركباتها الفضائيّة لاستعمار القمر!

في قريتنا لم يكن يموت إلّا المسنّون. وكانوا يموتون على فترات متباعدةٍ تحفظ للموت هيبته. لم أحتر كثيراً بأسباب هذا الطّارئ الحزين. عرفتُ أنّها الحرب أنشبت مخالبها بأهلي في غيابي. وحزنت لأنّ جدّي لم يكن يخبرني بشيء.

عرفت قبر جدّتي على الفور. لم يكن الأخير، بل الّذي قبله. ليس فقط طوله دلّني عليه (كانت قصيرة على نحو ملحوظ)، بل أيضاً الحُزَم الصغيرة من الشذاب الملقاة على سطحه.

كانت مولعةً بهذه النّبتة زكيّة الرائحة، حد أنّها غرست منها مشتلاً صغيراً جوار البيت. وكان أحد أبكر طقوسها اليوميّة، أن تعصب منها عذقين على غطاء رأسها.

لا أتذكّر أنّ جدّي ناداها يوماً باسمها، ولو لمرّة واحدة. كان عُرفاً أخرقاً يقضي بأنّ من شأن الوجيه أن لا ينادي زوجته باسمها المجرّد، بل يا أمّ فلانٍ أو يا حُرمة. إلّا أنّه، وإن كان قد تواطأ مع هذا العرف لما تقتضيه مكانته في القبيلة، احتال على الأمر بأن جعل من "شذابة" اسماً لها، وكان تأثيره عليها يفوق السِّحر. بمجرّد أن يفوه به باسماً، تنتعش العجوز الّتي كانتها وتبدو كما لو أنّها عادت عقوداً إلى الوراء.

في السّنوات الأخيرة، كثيراً ما كان يهجس لها أنّ الموت يقترب منها. حينها، كانت إحدى وصاياها الأثيرة لجدّي، ولي بالأخصّ، أنّ ننثر على قبرها الكثير من أعذق هذه النّبتة، وأن نغرس حوله منها.

وهاأنذا الآن، أنا الّذي كنت مخوّلاً وفقاً لوصيّتها بتأدية هذه الطقوس، جاثياً لصق قبرها، عند قدميها، وللمرّة الأولى لا أستطيع أن أحدّثها وأنا منها بهذا القرب، ودون أن يستقبلني صوتها الدّقيق الرّاجف: حَيّا بضوء عيوني، حيّا بولد قلبي.

آهٍ، كيف استحال هذا النّداء العذب لمنشارٍ يمزّقني وقد بدأت رحلته كذكرىً ستتعاظم حاجتي إليها كلّما أمعن غبار الوقت في تغطيتها. ما أقسى أن تتحوّل الأشياء المعنيّة وحدها بإسعادك لذكرياتٍ مستحيلة العودة. وحده الجوّ المعبّق بالشذاب يمنحني إحساساً كثيفاً بوجودها الماديّ، إحساس يوشك من قوّته يجعلني أعتبر موتها أكذوبة نسجها لي عمّي لعبثٍ ما.

كثيراً ما سمعت عن اليُتم، المصطلح الّذي يسِم به النّاس من يغيّب الموت والديه أو أحدهما وهو لما يغادر الطفولة بعد. الآن فقط أشعر بأنّ هذا التوصيف لحالتي الوجدانيّة أكثر دقّةً من أيّ وقتٍ مضى، أنا الّذي مات أبي قبل حتّى أن أولد، وغادرتني أمّي قبل أن أعرفها.

لم أعرف لي أباً سوى جدّي، ولا أمّاً سوى جدّتي. وهذا لم يكن يحزنني على الإطلاق. فالمهمّ في الأخير، أن يحظى المرء ببداية حياته بكيانٍ ذكوريّ يوفّر له الحماية وآخر أنثويّ يمنحه الحنان، وبهذا لا يكون يتيماً. ولو أنّ الأبوّة والأمومة كانا معنَيين حصريّين على انزلاقنا نُطَفاً من الأصلاب أو لحماً من الأرحام، لما تجاوزا في القيمة فعل التبوُّل.

مع بدايات تفتّح مداركي، أخبرني جدّي أنّ أبي مات في العراق شهيداً. كان يدافع عن تلك البلاد بحربها ضدّ إيران. ولا أتذكّر تحديداً كيف أخبروني أنّ لي أُمّاً تزوّجت لاحقاً من أحد المغتربين في أمريكا وأخذها معه إلى هناك. ولم تكن هذه التفاصيل لتعني لي شيئاً على الإطلاق. كان رحيلهما عنّي باكراً جدّاً، قبل أن تكون قد نشأت بيننا تلك الروابط العاطفيّة الّتي تجعل من الرحيل مؤلماً وسيّء الأثر. كما أنّ جدّي وجدّتي ملآ داخلي كلّ مساحات الفقدان. حتى حين كبرتُ وراجعت هذه التفاصيل، لم أضطغن على أبي لأنّه تركني في سبيل دفاعه عن أرضٍ تبعد عن بيتنا أكثر من مسافة دولة، ولا على أمّي الّتي ابتعدت عنّي أكثر من مسافة بحرٍ وقارّةٍ ومحيطٍ. ببساطة، كنت أعرف أنّ لكلّ إنسانٍ دوره بهذه الحياة، يؤدّيه غالباً بجبريّةٍ ما. وأنّ حيّز الاختيار دائماً ما يكون بسيطاً وتافهاً.

بكيت على القبر كثيراً. غير أنّي لم أحظ بالسلام الداخليّ الّذي اعتدته إثر كلّ بكاء. ربّما فقدت الدموع قدرتها على تطهير الروح من الأحزان، أو أنّ الحزن هذه المرّة أكبر من قدرة سيل الدموع على تجريفه.

بعد ساعة من النّواح المكتوم، أخبرتُها أنّي اشتقت إليها كثيراً، وأنّها ستبقى حيّةً فيّ أبداً، وأنّني سأكون دائماً بخير: سآكل جيّداً، وأتدفأ جيّداً، سأبتسم كثيراً وأكفّ عن حمل العالم على عاتقي. وكنت أدرك ما ينطوي عليها الكذب على الأموات من خسّة، فحرصت أن أكون صادقاً بإطلاق هذه الوعود. ولأنّني لم أسمع غمغمتها المتشككة،

عرفت أنّها صدّقتني وترمقني الآن بعين الرّضا، وأنّه صار بوسعي استئذانها للذّهاب إلى البيت.

غير أنّه، باللّحظة الّتي أمسكت حزام حقيبتي هامّاً بالانصراف، نما إليّ خبط خطىً مرتبكة، آتٍ من ورائي. أجفلني الأمر. أشعلت مصباحي وسلّطته على وجه الشبح المتقدّم صوبي. إنّه جدّي.

رفع كفّه لحماية عينيه من الضوء، سائلاً بارتياب: "من؟".

أطفأتُ المصباح وقد أخرستني المفاجأة. لم أتصوّر أن لقاءنا سيكون هنا. كنت أعرف أنّه لن يكون راضٍ عن عودتي فأعددت خططاً لتخفيف وقعها عليه. اختيار وقت ومكان وطريقة لقائي به، كانت محاور تلك الخطط. أمّا وقد وجدتني الآن على النّقيض من كلّ ذلك، فلم أستطع الاهتداء لأيّما فعل ملائم أو قول. تسمّرت ولم أحر جواباً.

لم يمهلني. كرر عليّ السؤال، وقد تحفّز هذه المرّة، كأنّما لينقضّ. "أنا ولدك!" نَبَرتُ، مستسلماً ومعذّباً في آنٍ. "أنت؟! كيف؟! متى؟! من الّذي أخبرك؟!" أخذ يلقي بهذه الأسئلة، ماضياً باتجاهي. وقد شجّعتني نبرته الفرحة لأخطو نحوه ملهوفاً.

لا أستطيع أن أقدّر بدقّة زمن احتضانه لي، لكنّه بالتأكيد لم يكن زمناً يسيراً. وعلى النّقيض من توقّعاتي، لم يعتَب عليّ عودتي. وحتى لم يُبدِ أيّما تعجّب من وجودي الآن بالمقبرة، كما خطر لي قبل لحظة أنّه سيفعل. فقط، بعد أن احتضن وجهي بين كفّيه لوهلّةٍ وتملّاه، اجتذبني إليه وأحاطني بذراعيه بقوّة.

كانت رغبة لا محدودة بالتوحّد. أفلتُّ حقيبتي وبادلته الاحتواء. وما أن غمرتني رائحته إلّا ودَبّ النّعاس في أوصالي. أخذ يتشمّمني ويلثمني كما لو أنّه لقاؤنا الأوّل، أو كما لو سيكون الأخير. وإذ أحكمت عليه ذراعيّ، راعني أن وجدته قد تضاءل كثيراً. قليلاً فقط، واختلج صدره على صدري في نشيجٍ مسموعٍ، لأشعر إذّاك برعب حقيقيّ، رعب كبير.

حين يولد أحدنا، يولد شاعراً بالخوف. هذا وحده يُفسّر بكاءنا لحظة الميلاد. خوفنا الفطريّ ذاك، والّذي نعبّر عنه تلقائيّاً بالبكاء، قبل أن يكون قد تكوّن لدينا أيّ وعي، هو ما يمنح الأبوّة معناها الحقيقي، وظيفتها وغايتها. ذلك البكاء السّاذج من الطّفل في مهده، هو نداؤه الضعيف المتوسّل لمن يتعيّن عليه حمايته من الخطر الّذي ولجه توّاً، والّذي اسمه الحياة. يقول فيه: لأتمكّن من العبور، أحتاج إلى الحماية.

بالنّسبة لي، كان جدّي من التقط ندائيّ الأوّل ذاك. وأجابني: لن تكون وحدك، أنا من سيحميك. تمثّلت هذه الإجابة بإسناده الدّائم لي، إسناد القويّ المكين، لحفيده الّذي جاء إلى الحياة عارياً من الأب ثمّ ما لبث أن تعرّى من الأُمّ. على الفور، اقتسم مع جدّتي مسؤوليّتي. هو عليه التوجيه والحماية، وهي الدفء والحنان.

لا يعني هذا أنّه لم يكن يشعرني بحنانه أيضاً، لكنّه كان يمنحنيه بندرة خاطفة، بالقدر الّذي يحفظ له هيبته في نفسي، هو الرّجل الّذي لم يكن ينظر لوجوده سوى من خلال هذه الهيبة الّتي لطالما رأيتها في

عيون الآخرين، والّتي استظليت دوماً بما تشعرني به انعكاساتها بتصرّفاتهم من أمان.

على ذلك، كان جدّي بالنّسبة لي، كالجبل لقريتنا. لكنّه الآن، وهو ينتفض بين يديّ كصوصٍ مبلول، يجرّدني من طمأنينتي تلك الّتي اعتدتها. يُقحمني بخيالٍ راعبٍ أرى فيه قريتنا لا تتكّئ على الجبل، وأراني مكشوفاً لكلّ الأخطار دونما إسنادٍ من أحد!

حينها، وأنا أحاول ابتلاع مخاوفي الّتي تداعت عليّ بهيئة أسراب من الأسئلة عن ما يكون حدث لأهلي في غيابي وتسبّب له بهذه الحال من الوهن، عرفت أنّ اليُتم لا يتعلّق بسِنٍّ معيّنة. وأنّنا نغدو أيتاماً لحظة فقداننا لحنان أمّهاتنا وحماية آبائنا، ولو كنّا قد بلغنا من العمر عِتيّاً.

بعد أن انتزع نفسه من ذاك العناق، لم يحدّثني بشيء. مسح عينيه بكمّ ثوبه ثمّ مشى خطوات إلى جدّتي، بينما ظللتُ منتصباً بمكاني. رفع كفّيه بوضع الابتهال وتمتم بكلمات بالكاد نما إليّ هسيسها. انحنى ومسح بكفّه على القبر برفق، كأنّما مباشرة على جسد الفقيدة. لحظات، وانفتل عائداً إليّ: هيّا إلى البيت.

في الطريق أيضاً لم نتحدّث بشيء. ولأنّه كان كعادته يتقدّمني، أمكنني ملاحظة أنّ ظهره قد تحدّب أكثر من ذي قبل. لا أدري لماذا تخيّلت لحظتها أنّه يحمل قبر جدّتي على كاهله، وأنّ هذا التحدُّب قد طرأ فقط بتأثيرٍ من ذلك.

كان القمر يسيل فضّة بسخاء، وكان ثوب جدّي الأبيض يفاقم انعكاس هذا الدّفق الغامر من النّور لحدٍّ شعرت أنّما أسير خلف كائنٍ

سماويٍّ خُلِقَ من خلاصات الضوء. ورغم ما كنت لحظتُ عليه في الدّقائق القليلة السّابقة من ما أثار فيّ خوف أن أفقده هو الآخر، إلّا أنني الآن، وأنا أتابع خطوه الرّشيق المتسارع، حيث بدت لي قدماه أشبه بحيوانين بريّين صغيرين ونهمين، شعرت بشيءٍ من الطمأنينة.

ومع مرورنا بأوّل بيوت القرية، غمرتني السعادة كُليّاً. تشبّثتُ بها هذه المرّة ولم أكترث لدواعي السّبر والمساءلة. وكمن كان يوشك على الموت اختناقاً، أخذت أعبّ من هوائها الرّخيّ ما أمكن. إلى أن استقبلتني، على مقربة من البيت، النّسائم المفعمة برائحة الشّذاب. ابتسمت وسارعت من خطوي. كان يداعبني أمل ساذج بأن جدّتي هي من سيفتح لنا الباب.

بعد تناولي العشاء الّذي قدّمته لي زوجة عمّي بترحابٍ كبير، والّذي شاركني فيه عمّي، وبعد أن أخليا لنا الغرفة، سألني جدّي عن الأوضاع في مأرب وكيف تمكّنت من اجتياز الطّريق. أخبرته أنّي لم أستطع التأقلم رغم محاولاتي، وأنّ اشتياقي للقرية، له، ولجدّتي، حال دوماً دون شعوري هناك بالاستقرار. وأخبرته أنّ الطّريق كانت مرعبة لكنّي تدبّرت أمرها.

ابتسم. ثمّ، وكأنّما لألمٍ مفاجئٍ، انقبضت ملامحه. أشاح بوجهه، وبعد أن صوّب عينيه على الفتيل المرتعد للشمعة، نبس: "مُذ سافرتَ إلى أن ماتتْ، لم تدع يوماً يمرّ دون أن تعتب عليّ أمري لك بالسّفر. قبل أن تموت، أخبرتها أنّي سأتّصل بك لتأتي، لكنّها رفضت بشدّة. خافت عليك ما كانت سمعتها من أهوال الطريق". مزّقتني هذه

الكلمات، غير أنّي لم أشأ الإثقال عليه بفيض تأثّر أُبديه فيهيّج حزنه أكثر.

قلت، مكابراً: "فليرحمها الله. لا شكّ أنّها الآن ترفل في النّعيم".

"أتدري يا بني؟"، سأل دون أن يميل عينيه عن اللهب، "من كلّ الهواجس الّتي عبرتني بامتداد عمري، لم يُخِفني منها سوى واحد: احتمال أن تسبقني هي إلى القبر. وحده كان يرعبني، ولطالما أخبرتها بذلك. آخر مرّةٍ كانت قبل موتها. كان المرض قد أنهكها وغدا رحيلها بادٍ على ملامحها. أتدري ما كان ردّها؟!". لم أنبس. كنت كمن انحشر في حلقه كون بأكمله، وبتُّ أسمع خفق صدغيّ بوضوح.

التفت إليّ بابتسامة أليمة، وهو يقول، ماسحاً عن وجهه دمعتين كبيرتين: "قالت بأنّها كانت تدرك تماماً أنّها سترحل أوّلاً. ثم أخبرتني بأنّها لم تكذب عليّ أبداً سوى بالمرّات الّتي صرّحتْ بأنّها لن تتألّم فيما لو قررت الزواج عليها. وأضافت أنّ ذلك، لو فعلته، سيوجعها، حتى لو كانت حينها بالقبر!".

وسكت قليلاً. كان يبتسم ويشهق. وحين أمسكتُ بكفّه لأخفف عنه، استتلى: "إلى أن ماتت، ظلّت تراني ذاك الشاب الفتيّ الّذي عرفته ليلة عرسها. ظللتُ بعينيها ذلك الرّجل الصّلب الّذي بإمكانه ابتداء حياة جديدة متى شاء، والّذي بمقدوره فعل أيّ شيء ولو معجزة. كلّ صباحٍ كانت تمنحني ثقتها المطلقة بقوّتي، فأخرج من البيت وجيهاً يُرهف له الجميع مسامعهم باحترام وثقة. منحتني كلّ شيء بكلّ رضىً. لم يحدث أن أشعرتني بأنّي أثقلت عليها بأمرٍ ما.

اكتفت على الدّوام بما أمنحها. لم تطلب منّي شيئاً قط. فقط قبل أن تموت، طلبت منّي، أنا هذا الكهل، أن لا أتزوّج عليها أخرى! المسكينة!". قبضت أكثر على كفّه. انحنيت وقبّلتها. ثمّ حشرجتُ: "رحمها الله، وأدامك لنا".

داعب شعري بكفّه الأخرى ثمّ أخبرني، مبتسماً، بأنني سأنام معه بغرفته هذه: غرفتك اقتحمها عمّك منذ نزوحه. فرحتُ. ولأنّني أعرف أنّه ينام باكراً، قمت لترتيب فراشه بينما أخذ هو يحفّني بدعواته. وبعد أن سوّيت فراشي أيضاً، أطفأتُ الشمعة واستلقيتُ محاولاً النّوم. هنيهات فقط، وتعالى شخيره. وللمرّة الأولى، استعذبت هذا الشخير، وصلّيت لأن لا تأتي ليلة لا أسمعه فيها.

قبل أن أنام، قررتُ، بكلّ حزم: سأظلّ في القرية. لن أغادرها حتى تنتهي الحرب.

2

حين استيقظتُ صباحاً، كان جدّي قد غادر منذ ساعات، كما أخبرتني زوجة عمّي. عرفت أنّه يقوم بجولته الصباحية المعتادة لتفقّد أرضه ومحاصيله الزراعية، وقررت أن أتناول إفطاري على عجل لألحق به. غير أنّي ما كدت أنتهي من الإفطار إلّا وقد عاد. بدا منهكاً. وعوضاً عن خروجنا معاً كما كنت أرغب، دعاني لشرب الشاي على سطح المنزل.

قبل أن نتحدّث هناك، على السّطح، شملت المنظر أمامي بنظرة واحدة. كان صباحاً ريفيّاً كثيف الألق. شمس باهرة تسيل ذهباً على الأشياء، بحرارة مقتصدة. سماء تتوزّع في أقاصيها مزق سحاب في حين جلّها أزرق صافٍ كوجه بحر ساكن. النّاس، وأغلبهم نساء، يجوبون طرق القرية بنشاطٍ كبيرٍ. يسوقون مواشيهم إلى المراعي هازجين بمواويل تشبه في عذوبتها نشيد الملائكة ببداية الخلق. وأنّى اتّجه البصر يجد قطعة أرض يرسم أحدهم بمنجله على وجهها رغيفاً ما. تختلط أصوات المواشي مع أهازيج الفلّاحين مع صخب العصافير مشكّلة مقطوعة متناغمة هي لا شكّ المادّة الأولى لكلّما شهدها العالم من موسيقى وغناء. فقط تأتي أصوات المولّدات المتراصّة على ضفاف السيل، والّتي يستخدمها الفلّاحون لرفع الماء لسقي محاصيلهم، ما بين حينٍ وآخر، كنغمة نشاز تفقد اللّحن، لوهلة، اتساقه وسحره.

الشيء المزعج الوحيد أن القرية بدت لي، رغم أنّ الأراضي الزراعيّة قد تمدّدت أكثر من ذي قبل، في شبه خلوٍّ من الأشجار الكبيرة. وهو ما لطخ المشهد بتشوّهٍ ما، أشبه برؤية حسناء وقد قصّت شعرها الفاتن والطويل لتسريحةٍ صبيانيّةٍ خرقاء.

لأوّل مرّة أمكنني رؤية السّيل الملتوي هناك في الأسفل هكذا عارياً من ما كان يتزنّرها من أشجار متشابكة الأغصان. بدا لي في تطحلبه أشبه بشالٍ أخضر مرميٍّ هناك بإهمال، مكشوف كليّاً بشكلٍ يحدّ من سحره المعتاد، حينما كان النّاظر يجهد ليعثر على زاوية يمكنه منها التلصّص عليه.

هذه الملامح العامّة للقرية، والّتي بالإمكان إحصاؤها من هنا بطرفة عينٍ، تشكّل الرداء الّذي تلفّعت به منذ بداياتها، والّذي لا يمكن لظرفٍ طارئٍ أن يُبليه. على الأقلّ، هذا ما يبدو ثابتاً حتّى الآن.

وبالطّبع، كنت أعلم أنّ المرء، كيما يتسنّى له الإدراك الكامل للأشياء، يحتاج أن ينظر إليها نظرتين: واحدة من الخارج، غالباً ما تكون على عجلٍ، وتعطي فقط ملمحاً عامّاً قد تكون إفصاحاته خادعة. وأخرى من الدّاخل، ممعنة ومتفحِّصة، تمكّنه من الخروج بأحكام حقيقيّة ومنصفة.

ولأنّني قررتُ أن لا أغادر القرية مطلقاً ما دامت الحرب قائمة، لا بدّ عليّ إذاً من تفحّص الأشياء جيّداً ومعرفة كلّ ما طرأ في غيابي. وهذا ما بدأته أوّلاً مع جدّي، ومنذ أوّل رشفة شاي.

في البداية، أخبرني بما كنت أعلمه، ثمّ أخذني للأحداث الّتي أجهلها.

كنت في القرية حينما استولى الحوثيّون على صنعاء. كان تركيزهم حينها على المدن، على مراكز القوّة. وقد دأبوا في ذلك على صناعة نظام إداريّ موازٍ للّذي كان قائماً، أسموا أعضاءه بالمشرفين. ما لبث هؤلاء المشرفون أن صاروا هم من يديرون مؤسسات الدولة، وفقاً لخطّة الجماعة وأهدافها. في حين غدا النّظام الإداريّ الأصليّ محض ساتر هزيل، لإضفاء قدر من الشرعيّة على ممارساتهم.

انتهت إجازتي الدراسيّة بعد أن أحكموا سيطرتهم على مفاصل البلاد. وحين عدت لصنعاء لعامي الدراسيّ الأخير، كانوا قد بدأوا بتوسعة نظامهم الإداريّ ليشمل الأرياف أيضاً. جعلوا على كلّ مديريّة مُشرفاً يتلقّى تعليماته من مشرف المحافظة، الّذي يتلقّى بدوره التعليمات من ما سمّي باللجنة الثوريّة العليا، الّتي يرأسها ظاهريّاً أحد أقرباء قائد الجماعة.

في البداية، اقتصر دور مشرفي الأرياف على إثبات الوجود، ثمّ بدأ هذا الدّور يتصاعد للحشد للجبهات الّتي بدأت الجماعة تتكبّد بها بعض الخسائر. تعز والضالع والبيضاء كانت المحافظات الأكثر ممانعة من مجموع محافظات الوسط والجنوب، فحشدوا إليها مجاميع كبيرة من أتباعهم الريفيين.

لم يكن الحشد حينها إلزاميّاً. تلك الفترة، انتهجوا سياسة الإغواء الطائفيّ لمن كانوا على استعداد لتقبّل شعاراتهم وفكرهم، والإغواء

بالمكاسب الماديّة والجهويّة للّذين لا يهتمّون بشؤون الفكر وصخب المذاهب.

امتداد هذا النّظام إلى الأرياف شكّل ضربة قاصمة للوجاهات القبليّة. ما بين ليلة الانقلاب وضحاها، تحوّلوا لمجرّد بيادق، مودّعين ذلك الدّور الّذي كانوا يلعبون فيه، ببعض المناطق، سلطة مطلقة. الغالبية العظمى من تلك الوجاهات مالأت الجماعة ورضخت لها، سيّما من كان منهم ما يزال على اتصال مباشر بالرئيس السّابق وتربطه به بعض المصالح. أمّا القلّة الّتي مانعت هذا المدّ، فقد لقي أغلبها مصيراً محزناً.

ولما اشتدّت الحرب وبدأ الامتداد الحوثيّ بالانحسار، سيّما بعد دخول التحالف العربيّ في المعادلة، احتاج الحوثيّون لمزيدٍ من المقاتلين، وبالتالي بدأت طريقتهم للحشد تكتسب طابعاً إلزاميّا.

وبالطّبع، كانت قريتنا ضمن المناطق الّتي التفتوا إليها أخيراً لهذا الغرض. والواقع أنّ جدّي ليس شيخ منطقتنا ككلّ. كان الأبرز وجاهة في قريتنا، لكن تأثيره لم يكن ليتعدّى القرى الصغيرة المجاورة. ولم يكن منتمياً لأيّ حزب سياسيٍّ كما لم يكن لديه توجّه فكريّ محدّد. كان من ذلك النّوع من النّاس المنتمين فقط لقبيلتهم، لأُسَرهم. وقد ظلّ رافضاً لأيّة محاولة لاستقطاب الأهالي لأيّ من المعسكرين.

كان يرى أنّ الأطراف الحقيقيّة لهذه الحرب هي من خارج حدود البلاد، وأنّ اليمنيين فقط وقودها بالوكالة. ولأنّه أخذ يجاهر بنظريّته هذه، محاولاً إحباط سعي الحوثيين للتحشيد، كان أن تلقّى

اتصالاً هاتفيّاً من مجهول أبلغه أنّه إن لم يكفّ عن ذلك، سيدفع الثمن رأسي.

قال له أيضاً أنّهم يعرفون أنّ ابنه قُتِل في العراق، بحربها ضدّ إيران. وأنّهم من أجل كلّ ذلك، سينتقمون منه بي. فور أن أنهى المجهول اتصاله، تلقّيت من جدّي الاتصال الّذي أمرني فيه بالسّفر إلى مأرب.

ورغم أنّ جدّي لم يذعن لتلك التهديدات وظلّ على دأبه، سيّما وقد اطمأنّ لأنّي صرت بعيداً عن الخطر الّذي توعّد به المجهول، إلّا أنّ عوامل أخرى أسهمت في جعل انتصاف الأهالي بين المعسكرين مع مرور الوقت أمراً حاصلاً. كان تدهور الوضع الاقتصاديّ سبباً رئيساً في ذلك. عمد كثيرون للالتحاق بصفوف المقاتلين للطّرفين، وقد أمست الحرب مصدر الرزق الوحيد! الكثير منهم لم يختر طرفاً بعينه بناءً على محاكمة عقلانيّة خلص منها لصوابيّة تموضعه أو سموّ قضيته أو شيئاً من ذلك، بل فقط لأنّه كان الأيسر وصولاً. وبهذا، كشف لي جدّي سرّ الصفّ الإضافيّ من القبور الّذي فاجأني في وصولي.

حين أكمل هذا السرد لما قاساه في الشهور الخوالي، لم أهتدِ لأيّ من طرق المواساة. حنقت على نفسي لأنّي عتبت عليه، وإن بصوتٍ داخليّ فقط، أمره لي بمغادرة صنعاء دونما شرح لأسباب أو بيان لتفاصيل. نظرت في عينيه واختصمَتْ بأحشائي نصال مجنونة. كانتا بلا بريق، ذاويتين، وتوشكان على الانطفاء.

3

ومنذ اليوم الأوّل لوصولي، مضيتُ أقضي، بسعادة غامرة، أيّاماً لم يكن أحدها يختلف عن الآخر في شيء!

الشهور السابقة التي قضيتها في مأرب، ببيئتها الصحراوية، بجفاف هوائها وثبات تضاريسها وشراسة مناخها وافتقارها الشديد للأشجار وصخب الأحياء، جعلت من استعادتي لروابطي مع الطّبيعة الباذخة للقرية أولويّة. حقنتني بتطلّع لا محدود لارتشاف التفاصيل، حتّى أدقّها.

وفي حاجتي الكثيفة هذه للاندغام في الطبيعة، للتماهي مع إيقاعها، للاستسلام لإرادتها، لم يعد التكرار باعثاً للملل، بل دعوة لمزيد من الإنصات، ولو لنداءات لا تتبدّل. الإنصات المؤدّي لمزيد من الفهم، وبالتّالي لمزيد من التعافي.

لم أعرف أن حواسي كانت بزمن ما على ما هي عليه الآن من استنفار لالتقاط كلّ ما يقترب من نطاق مدركاتها من إشارات. لكأنّ ذلك الاحتياج أحالني أذناً محضة، متحفزة لالتقاط أدنى هسيس.

أصحو قبل العصافير بنحو ساعة. يوقظني جدّي مع الصيحة الأولى التي يمزق بها أوّل ديوك القرية السكون الأزليّ لليلها، لأرافقه لصلاة الفجر في المسجد.

أمضي متثاقلاً لأتوضّأ، وما تلبث سُقعة الماءِ تمنحني يقظة تامّة. نخرج من البيت فتستقبلنا النسائم الباردة. نتنفسها فتمدّنا بطاقة تجعل من لحظتنا تلك أشبه بلحظة خلق جديد. يسبقني وأمضي خلفه، أناور جسده الضئيل ببقعة الضوء التي يدلقها مصباحي اليدويّ، لأمنح خطوته التالية تصويباً جيداً. هو يستهلك الطريق تسبيحاً وأنا باحتساء عذوبة صوته. لا أعرف أيّة روحانيّة تلك الّتي تنطوي عليها تسابيحه. تمنح الله في نفسي امتداداً لا يُحَدّ.

غالباً نكون أوّل من يصل. وأحياناً يكون المؤذّن قد سبقنا. يفتح جدّي الباب فيزفر المسجد في وجوهنا دفئاً يذكّرني بحضن جدّتي بليالِ الطفولة. يقدح عود ثقاب يشعل به الشمعة التي ما تزال منتصبة بمكانها المعدّ لتثبيت السراج في المحراب، منذ صلاة العشاء. يهوي بكفّه فيمتد من العود المطفأ، في ضوء الشمعة، خيطاً من الدخان ضئيلاً توخز أنفي رائحته لوهلة. يجلس مُسنداً ظهره لعمود المسجد الأوحد وينتظرني لآخذ المصحف وآتي للجلوس بجانبه.

أقرأ ويستمع. وأحياناً يقرأ معي بتوحّدٍ يملؤني خشوعاً. سورة الانشراح هي المفضلة لديه. إن اخترت غيرها، يستمع إلى أن أكملها، ثمّ يهمس لي: اقرأ "ألم نشرح لك صدرك". نقرؤها معاً. يمسك كفّي ونقرأ إلى أن نصل: إنّ مع العسر يسراً، يضغط على كفّي لأتوقّف ويظلّ هو يردّدها. ثمّ يضغط أخرى لنكمل معاً.

يصل المؤذن بعد لحظات. يلقي علينا التحيّة ويخرج لصرح المسجد. يرفع نداءه بصدق من اتكأ وجوده للثمانين السنة التي

عاشها، على ظنونه المتفائلة بتلك القوّة الجبّارة القابعة خلف الغيب، والّتي يحاول الآن بما يعبّئ بها صوته من تهدّجات منحها ما تستحقّها من قداسة.

هنيهاتٍ، ويأتي الإمام. ثمّ يتقاطر الثمانية من كبار السنّ ذاتهم الّذين تربطهم مع المسجد آمالهم بحياة أخرى هانئة يرون أنفسهم شارفوا عليها. وبعد أن نشرع في الصلاة، يلحقنا إليها أحياناً شاب بمثل عمري، أو اثنين.

حين نعود إلى البيت، تكون زوجة عمّي قد استيقظت لإعداد الإفطار. وككلّ فجرً، يكرّر عليها جدّي طلبه بأن تعمل على إقناع زوجها بترك عادة النّوم صباحاً. وككلّ فجرٍ أيضاً، تردّ عليه بالصمت.

بعد الإفطار، نمكث مُلفّعين بأرديتنا الثقيلة، نتجاذب حديثاً ما إلى الغبش فنخرج صوب الحقول.

منذ هذه اللحظة، يبدأ الأهالي صباحاتهم. النساء يُخرجن المواشي لاحتلابها والاعتناء بها، كخطوة أولى بيوم طويل وشاقٍّ ستدور أغلب أنشطته بفلك الأولاد والمواشي. والرجال يتوجّهون للحقول للاهتمام بشؤونها، أو إلى السوق لبيع بعض المحاصيل وشراء بعض الحاجيّات. والأولاد يستيقظون لابتداء يومٍ دراسيٍّ جديد.

في طريقنا، نمرّ على قبر جدّتي. بعد أن نلقي عليها التحيّة معاً، أمضي بخطوات بطيئة، مانحاً إيّاهما فرصة البوح والاختلاء. ينحني متمتماً على قبرها قليلاً ثمّ ما يلبث أن يلحقني. لنستمرّ بعدها بتفقّد محاصيلنا حتى الظهيرة، إلى أن تأمرنا الشّمس بالعودة إلى البيت.

ويبدو أن أبرز مفاعيل شمس الظهيرة عليّ كان تحريض عقلي على استقراء ما طرأت هنا من تغيّرات، أحاول إحالة ما أشاهدها من نتائج إلى مسبباتها، فأبدو كمن يجهد في تركيب قطع أحجيّة ما، يخشى وضع إحداها مكان أخرى فيكون حصاد جهده الفشل الذريع.

كانت القرية قد شهدت، منذ اندلاع الحرب، موجات نزوح كبيرة. خلال أيّام، غُصّت بمجاميع ضخمة لا عهد لها بها. وقد بدا الأمر ببدايته حميميّاً، أشبه باجتماع عائلة كانت مزّقتها خطوب الحياة. رغم أنّ الأمر هنا معاكس، إذ ما اجتمعت هذه العائلة إلا بفعل الخطوب المعنيّة، وفقاً لمنطق الأشياء، بتمزيقها!

لكن هذا الاجتماع المفاجئ والكثيف ما لبث أن نجمت عنه الكثير من التغيّرات في صيغة الحياة المعتادة للأهالي، والّتي أخذ وقع بعضها يغدو مزعجاً، بل ومؤرّقاً.

فإذا كان الريفيّون قد تقبّلوا في البداية، بدافعٍ من عاطفيّة اللّحظة، اقتسام بيوتهم مع الوافدين، فإنّ هذه العاطفة ما فتئت تنسحب لاحقاً أمام شعور بالثقل ما انفكّ يتمدّد. ليس فقط لما أحدثه سيل النازحين من إنهاك لاقتصاد الأسر المستقبلة، والّذي لم يكن متعافياً في الأصل. ولا من ما تسبب به لأفرادها من صعوبات الاختلاء والرّاحة. ولا بدافعٍ من الرّغبة الأصيلة للإنسان بالحفاظ على استقلاليّته وحمايتها. كان ثمّة، بالإضافة لكلّ هذه التداعيات، سبب آخر أعمق تأثيراً.

فمن المعلوم في ريفنا، أنّ النّساء يقضين أعمارهنّ، وفقاً لمقتضيات الحياة الريفيّة، بمزاولة أنشطة أغلبها، للإنصاف، مهامّ ذكوريّة. ففي قريتنا، مثلاً، أن تحمل المرأة فوق رأسها حزمة ضخمة من الأعلاف من أسفل الوادي إلى بيتها، أو أن تحمل بيديها من السيل جالونين كبيرين من الماء، تصعد بهما الدّرب الحجريّ الضيّق والمرتكز بعنفوان ما بين حافّة السيل والبيوت الأولى، ليست هذه بالأشياء المدرجة بخانة الاضطرار، بل تعتبر روتيناً يوميّاً معتاداً.

بناءً على ذلك، تسقط عنها، تلقائيّاً، أغلب مظاهر الترف الأنثويّ الّذي للمرأة في المدينة. الرجال أيضاً، يكونون قد اعتادوا جمال نسائهم واكتفوا به، ذلك الجمال الطبيعيّ المتخفف، لأقصى الحدود، من بهرجة المكياجات وسحر الموضة.

لكن ذلك كلّه تغيّر مع تواتر موجات النزوح. فكثافة النّساء القادمات من المدينة هذه المرّة، جعلت من تفوّقهن في الزينة أمراً كان من الوضوح أن جعل وقع حضورهنّ على نساء الرّيف أشبه بلعنة.

زاد من تفاقم الأمر، أنّه تزامن مع المناخ الفردوسيّ للقرية، حيث الصيف ما يزال في أوجّه. السماء متناوبة بين حالين: صفاء باهر تتوّجه شمس ساطعة، أو تلبّد ما يلبث يهبط إلى الأرض أمطاراً سخيّة. والأرض مزق من فراديس ملوّنة. وتكفي المرء رشفة ممعنة من هوائها لتهدهده الثّمالة.

كلّ التفاصيل الّتي تدفع بالنّفس لأقاصي التحفّز لالتقاط همس العواطف، لتشييد أعمارٍ غنائيّةٍ، كانت متضافرة بشكل مدهش. ولأنّ

أغلب الأسر الوافدة كانت ما تزال تتوفّر على قدر من المال كافٍ لإعاشتها لفترة من الزّمن دونما تأزّم، ولكونها أيضاً ما تزال محظيّة بما تجزله لها الأسر المستقبلة، الّتي هي في الأصل جزء منها، من كرم ضيافة، لم يكن منها إلا الاستجابة لهذه النّداءات، مدفوعة أيضاً باحتياجها الطبيعيّ لنسيان ما كانت عانته من جحيم الحرب قبل النزوح.

بتلك الأسابيع، غدت القرية أشبه بمنتجع سياحيّ صمّمه عبقريّ ما بإيعاز من قوّة ملهمة تدرك الدّهشة الأصيلة للإنسان بالأشياء التي ما تزال غائرةً في طبيعيّتها.

طوال النّهار، يمتلئ السيل وضفافه بالصبايا الوافدات المرتديات أشكالاً من العباءات هي بالنّسبة لفتيات الريف أشبه بفساتين أعراس. يغويهن جريان السيل وخرير مياهه فيخلعن أحذيتهن عن أقدام كالثّلج ويشمّرن عباءاتهنّ لاقتحامه. يبدأن بالتراشق بالماء فتتصاعد صيحاتهن المرحة والمبللة إلى أسماع مراهقي القرية وشبابها، المتخفّين كالأشباح خلف سياج الأشجار الممتدّ على طول الضفاف، فاغري الجفون والأفواه لهذه المخلوقات الرائعة الّلاتي يفاقمن شبقهم لمستويات لم يعهدوها.

ولَكَم كان يسوؤهم أن تأتي إحدى الريفيّات، محمّلةً بما اقتلعته للمواشي من أعلاف، بغية غسلها على الضفّة. سرعان ما يصرفون أنظارهم عنها، بتقزّز من وقعت عيناه بغتةً على بصقة.

هكذا دأبت الصبايا النازحات على قضاء نهاراتهنّ. لم يكن يدفعهن للعودة إلى البيوت سوى شعورهن بالجوع عند الظهيرة. يرجعن فقط لتناول الغداء الّذي هو بالنّسبة للمُضيفات حصيلة عناء دام منذ الفجر. يتناولنه على عجلٍ ثمّ يعدن للهوهنّ إلى أن تسقط الشمس خلف الجبل، فيعُدن للمبيت.

وإذا كان الليل بالنّسبة للريفيين هو كلّ حصّتهم من وقت الرّاحة، يأتي بعد ساعات طويلة من الكدّ، فإنّه كان بالنسبة للنازحين امتداداً لما عاشوها في النّهار من بهجة.

وكانت الغرف في كلّ البيوت قد اكتسبت، تقريباً، توزيعاً واحداً معيّناً. الرجال الكبار في غرفة. النّساء في غرفة. الشباب في غرفة. والصغار في غرفة. وغالباً ما يكون ثمّة غرفة يتناوب عليها المتزوّجون. كلّ ليلةٍ لزوجٍ منهم. وكان الأمر ليسير على نحوٍ أكثر هدوءاً لولا اللعبة التي انطوت عليها الغرفة الّتي للبنات والأخرى الّتي للشباب، والّتي ما لبثت أن أنتجت ظاهرة مفصليّة.

فبينما تقضي البنات لياليهن، أنصافها الأولى على الأقلّ، بأحاديث مرحة، كان الشباب يقضونها باستيهامات هي امتداد لشبقيّة نهاراتهم. يستحضرون ما نُحتت بذاكرتهم، بامتداد ساعات الصّخب والشمس، من إغراءات. تاركين لخيالاتهم حريّة تطويرها وتضخيمها. ويبدو أنّ البنات التقطن ذلك فطفقن _كنوع من اللهو المطعّم بالاعتداد الأنثويّ_ يرفعن أصواتهن، متغنّجات، بأحاديثهن الليليّة تلك. يستمتعن بما يعلمنه من أثر ذلك على نفوس الشباب.

وكانت النتيجة موجة عارمة من طلبات الزواج لشباب القرية من البنات الوافدات. تزامنت مع عدّة حالات خصام بين الأزواج المضيفين. وهذا ما اعتبرته نساء الريف تهديداً وجوديّاً يجب مقارعته بحزم.

في غضون أيّام قليلة تالية، تلقّت الأسر الوافدة من المضيفة ما يشبه عريضة امتعاض جمعيّة. أرتال من الإيحاءات والتصرفات مفادها: غادرونا، لم يعد مرحّباً بكم!

وبالطّبع، لم يكن هؤلاء النّازحون غريبين عن القرية، بل جزءاً من أهلها غادروها بزمنٍ ما لأسباب مختلفة، أهمّها الاستقرار بمكان الوظيفة الّتي يشغلها المعيل. وبالطّبع أيضاً، لم تنزل تلك الامتعاضات في نفوسهم منزلاً حسناً، فشرعوا، كردّ فعل متوقّع، يطالبون الأهالي بنصيبهم من تركة الأجداد من الأراضي والبيوت، والّتي أُسقِطوا منها سابقاً بحكم البعد والغياب.

أذعن الأهالي. بفترة وجيزة اقتسموا مع الوافدين أراضيهم ودورهم. حتى القلّة من النّازحين الّذين لم يكن لهم ميراثٌ ما، اجتهدوا وجمّعوا بعض الأموال من هنا وهناك (أغلبه من بيع حُليّ نسائهم) وعمدوا إلى البيوت القديمة الّتي كانت صُنّفت بسنوات الإهمال الفائتة كخرائب، فرمموها وسكنوها.

البعض أيضاً حين رأى الأوضاع تراوح مكانها عاد إلى المدينة، مستسلماً لعبثيّة أقدار الحرب الّتي كانت قد بدأت تمتدّ أيضاً إلى الريف، مُفقدة إيّاه مزيّة الأمن والهدوء.

مع تتالي الأيّام بعدها، الأسابيع، والشهور، غرقت النّساء الوافدات شيئاً فشيئاً بحياة الريف، إلى أن تساوين تماماً مع القرويّات، شكلاً ومضموناً. انتهى الصيف. أمسكت السماء ماءها وبدأ موسم قحط سيستمرّ ستة أشهر تالية. تضاءل السيل ولم يعد في تطحلبه يغري المتمدنات لغضاضة المرح الأنثويّ وعذوبته. كان مراهقو القرية وشبابها لاحظوا، بدورهم، أنّ الشّمس لوّحت الأكف التي كانت بيضاء وأن مفاعيل الحياة في الريف قد طمست الامتيازات الّتي كانت.

وتحت ضغط متطلبات الحياة، وبعد أن تضاءلت رواتب الموظفين حتى كادت لتنعدم، تحوّل الرجال، جميعهم، إلى مزاولة الزراعة. كلّ شبرٍ من أرضٍ كان بالإمكان استصلاحه، لم يوفروه. اعتمدوا في الريّ على المولّدات المخصصة لهذا الغرض، يرفعون بها مياه السيل إلى أراضيهم. ورغم أن كُلفة المشتقات النفطيّة المستخدمة كوقود لهذه المولّدات، كانت تبلغ أحياناً ما ينتظره المزارع من مدخول محاصيله، إلّا أنّ النّاس لم يكُفّوا عن العناية بأراضيهم ومحاصيلهم. أضحى هذا العمل بالنسبة لهم غاية في حدّ ذاته.

وهكذا مضى هذا المعطف الأخضر، الّذي وجدت قريتنا ترتديه هذه المرّة أكثر من أيّ وقت مضى، يغريني لاستهلاك وقتي منذ العصر (بعد أن أنتزع نفسي من قعر قيلولة لذيذة تمتدّ منذ الظهيرة) بالتنقّل بين الحقول، بوعي تام للتفاصيل يشبه وعي طير يتمعّن في اختيار المكان الأنسب لبناء عُشّه.

أمّا جدّي فكان يقضي هذا الوقت في مجلسه، يستقبل الزائرين الّذين انتهوا من تقديم تعازيهم منذ اليوم التالي لموت جدّتي وعادوا، مذّاك، لاعتلاك الأحاديث العتيقة ذاتها.

أظلّ هائماً في الحقول والطرقات إلى أن يُدمى الأفُق فأمضي إلى المسجد حيث يكون جدّي قد استبقني إليه. نصلّي المغرب والعشاء ونعود، من ثمّ، إلى البيت. يكون عمّي غالباً قد تناول عشاءه مع زوجته وبناته، فنتناول، أنا وجدّي، عشاءنا، ثمّ نخوض في شؤوننا المعتادة إلى أن يرتفع شخيره معلناً نهاية يوم ودنوّ آخر.

بتلك الأيّام، لم أبنِ ولو علاقة صداقة واحدة. كلّ شباب القرية ممن كانت تربطني بهم صداقات، كانت الحرب قد أكلتهم أو رمت بهم خارجاً. ولم أكن مهتمّاً بصياغة صداقات جديدة مع الوافدين. انهمكت فقط بالانسجام مع الطبيعة. وكانت أيّاماً بهيّة، رمّمتني. كما أنّ طبعي الأصيل بالتوحّد مع البيئة الّتي أغدو فيها، سيّما في البدايات، غيّب عنّي أصدقائي في مأرب. لم يخطروا لي أبداً، ولو كوميض.

فقط ثلاثة أمور كانت تنغِّص عليّ بعض اللحظات. أوّلها مخاوف جدّي من أن يعرف حوثيّو منطقتنا أنّي كنت بمأرب، وأنّي التحقت هناك بالجيش الوطنيّ. كانت مخاوفه هذه تشعرني بالثقل.

وثانيها، وهو الأشدّ عليّ، شجرتي الّتي احتطبوها. الشجرة الّتي تعرف عنّي كلّ شيء، حتى أنهى اختلاجاتي. والّتي حين ذهبت لزيارتها صبيحة اليوم التالي لوصولي، وجدت الفأس قد سبقتني إليها.

انقطاع الغاز الطبيعيّ إثر الانقلاب، كواحدة من أبرز مفاعيل الحرب، سبّب موجة احتطاب في ريفنا غير معهودة، لتغطية احتياج الأهالي من وقود الطهي، ولدعم ما أمكن من الأسر ذات القرابة والّتي ما تزال باقية في بيوتها بالمدن القريبة.

وهنا، لا بدّ لي من الوقوف قليلاً، وقفة قد يستغربها كلّ من عاش طفولته ويفاعته في المدينة، من الّذين لا يعرفون ما تنشأ بين أبناء الريف الخضير وبين أشجارهم من وشائج. ولعلّي لا أبالغ إن قلت إنّ لكلّ ريفيّ شجرة تخصّه، تجمعه بها علاقة وطيدة. يعتبرها فرداً من صميم أسرته. وهي علاقة عفويّة تماماً، تأتي دونما افتعال أو تكلّف. فشجرتي هذه مثلاً، لا أعلم متى المرّة الأولى الّتي حملتني خطواتي إليها. ما أعرفه أنّها كانت ملجأي الدّائم كلّما مار بصدري ما لا يمكنني البوح به لجدّتي أو لجدّي أو لأحد أصدقائي.

أمضي إليها على الفور، تشدّ أقدامي إليها قوّة أكبر من إرادتي. أقتعد جذرها الضخم المنتفض بثقة وكبرياء فوق سطح الأرض. أسند ظهري لساقها الضخمة مغمضاً عينيّ وتاركاً لأفكاري ومشاعري حريّة التحليق، متراقصة على أنغام العصافير النشيطة على الأغصان وخرير السيل تحت مستوى الجذور.

لا يمكنني إحصاء كم فكرة خطرت لي هناك، ولا كم ابتسامة اعتلكتها دون وعي، ولا كم تنهيدة زفرتها، ولا كم صفحة قرأتها. ولعلّي لن أكون مبالغاً أيضاً إن قلت إنّي قضيت في عشّي الافتراضيّ بين

جذورها الناتئة زمناً يناهز ذاك الّذي قضيته بأحضان جدّتي وبالقرب منها.

لحظة أن دنوت منها صبيحة ذلك اليوم، وقد أبصرتها جُزّت من فوق مستوى الأرض بقليل، شعرت كأنّما هوت على ساقيّ فأس لا مرئيّة فاجتزّتهما. تدافعت الغصص في حلقي كمن يشهد النسيان وهو يلوك نصف تأريخه. بالكاد لملمت أشلائي واستدرت ماضياً عنها. تنهشني ذات المشاعر الّتي ساطتني على قبر جدّتي ليلة وصولي.

ولم أعد بعدها للوقوف على أثر شجرتي هذه ولو مرّة. ليس من أدعية تُتلى على أضرحة الشّجر. وفكّرت أنّي سأعود إليها ذات زمن قادم وقد اخترعَتْ لها ساقاً ضخمة أخرى وأغصاناً. ولربما يسعني حينها البدء ببوح جديدٍ هو ما سيمور في صدري مذّاك وحتى نهاية العمر، عمري.

أمّا ثالث منغصاتي، فكان سعي جدّي الحثيث لإقناعي بأن يخطب لي ويزوّجني. وهو سعي قديم، غير أنّه اكتسى الآن طابعاً إلزاميّاً. فقد كان، ككلّ الوجاهات القَبَليّة، ونظراً لما تفرضه ذهنيّة العشيرة من تصوّرات، يطمح لتكوين أسرة كبيرة، كثيرة الذكور.

ولأنّه لم يكن له سوى ولدين، أبي الّذي قضى وما أزال، أنا ابنه البكر، جنيناً، وعمّي الّذي كلّ نسله إناث، ولأنّ علاقته بجدّتي كانت أكثر حميميّة من أن يجنح للزواج بأخرى ليحصل منها على مزيد من الأولاد، فقد جعلت منّي هذه الحيثيّات وسيلته الوحيدة لتحقيق طموحه بالأسرة الكبيرة كثيرة الذكور.

وعليه، لم ينِ يضغط عليّ من أجل الزواج، مذ كنت ببدايات مراهقتي. ولولا رأفته بي، كوني، من وجهة إحساسه، يتيماً، ولمكانتي في نفسه، باعتباري حفيده الأوحد من الذكور، لكان فرض عليّ الزواج بأمر صارم لن يكون بمتناولي سوى تنفيذه.

وقد ظللت على الدوام صلباً في رفض هذه الفكرة. فباستثناء بعض القصص العرضيّة والساذجة الّتي أقدمت عليها في مراهقتي، لم أكن قد عشت انجذاباً لأيّة فتاة. على الأقل، ليس للحدّ الّذي يدفعني لأتزوّجها. وكانت فكرة أن أتزوّج هكذا فقط لإرضاء جدّي، تصيبني بالجنون. فكنت أندفع في رفضي ذاك، معبّراً عنه بأشدّ ما يمكنني. وكان بدوره يلين، ويتقبّل منّي هذا النفور بابتسامة.

لكنّي الآن لم يعد بمقدوري مجابهته بالصلابة الّتي كانت. بل إن مجرّد انتهاجي المراوغة كلّما أعاد طرح الأمر عليّ، كان يوخزني بألم ممضٍّ لا أنجح في تخديره سوى بمغالطات نفسيّة دؤوبة. بتّ أشعر أنما أرفض أمنيةً لرجُلٍ يحتضر. وأيّ رجل؟! من أعزو إليه كلّ ما عشتها من مظاهر حياة جيّدة، والّذي سيظلّ وجودي الهانئ رهن وجوده إلى جانبي.

وأخذ تلكؤي بهذا الشأن يكتسي في نفسي أكثر فأكثر رداء الخيانة. يملؤني بأحاسيس بغيضة. يقف بي وجهاً لوجه مع أنانيّتي وتقديمي لذاتي ولقناعاتي على كلّ شيء. إلى أن أتت تلك الليلة الّتي وافقت فيها على الأمر فوراً، دونما مراوغة أو تمهّل، بل وبكلّ اندفاع!

4

كان يوم جمعة. لم يستطع جدّي مغادرة البيت، لا لجولتنا الصباحيّة، ولا حتّى إلى الصلاة. بدا منهكاً للغاية وكان يسعل كثيراً. حاولنا صباحاً، أنا وعمّي، إقناعه بأن نسعفه لمشفى المديريّة لكنّه رفض. قال بأنّها محض "كُحّة" سرعان ما ستزول. وأنّ البقاء على فراشه قليلاً هو كلّ ما يحتاجه ليتعافى. ورضخنا رغم قلقنا. وبقيت بجانبه إلى أن أمرني ظُهراً بالذهاب إلى الصّلاة.

هناك، بدأ الخطيب يلقي علينا، من الكتاب نفسه الّذي عمره بهذا المنبر يزيد عن عمري، خُطبةً سبق وسمعناها منه عشرات المرّات. كنت قد حفظتها تماماً فانصرفت، منذ بدايتها، لقلقي على جدّي. لم أستطع أن أتخيّل ما ستكون عليه حياتي إن فقدته هو الآخر. كان هذا الخاطر مفزعاً، جعلني أستغرق في ابتهالات أرفعها للسّماء، أتضرّعها أن لا تشنقني بقَدَرٍ كهذا.

لكنّي حين عدت إلى البيت لم أجده. كان المرض قد اشتدّ عليه فأسعفه عمّي. أخذ قلبي ينطح أضلعي بينما تُسابِقُ قدماي الريح إلى الطريق الإسفلتيّة، حيث أخذتني سيّارة إلى المشفى.

حين وصلت، كان جدّي يستعدّ للخروج، بعد أن أُعطي بعض الأدوية والكثير من التطمينات الّتي لم يبخل بها الطبيب عليّ أيضاً. في خروجنا للعودة إلى البيت، تعكّزني. ماضغاً ابتسامة مُتعَبة، يطمئنني بها.

ومنذ وصولنا حتى دنوّ المغرب، ظلّ الأهالي يتوافدون. يزورون المريض الّذي يحترمونه كثيراً، داعين له بالشفاء وإطالة العمر.

كانت رغبتي بالاختلاء به لا تُحَدّ. كثير من المواضيع ما انفكّت تتوارد لذهني، أريد التحدّث معه بشأنها جميعاً. وكان شعوري بأن الوقت ينفد، يدفعني لأصرخ في وجوه الزائرين أن يخرجوا ويتركوا جدّي لي وحدي. لكنّي لم أفعل. كما لم يخرجوا إلّا حين لملم النّهار عن نوافذ المجلس كلّ ضوئه الّذي استعضنا عنه بشمعة مرتعدة اللهب.

في بداية المساء، كان عمّي معنا. ثمّ غادرنا بعد أن خفّت لدى جدّي وتيرة السعال. ولما غدونا أخيراً لوحدنا، الأمر الّذي ظللت أتحرّق له، وجدت كلّ ما كانت جمجمتي معبّأة بها من مواضيع قد تبخّرت كليّاً! فبقيت مُسمّراً بجواره. مُحتضناً كفّه بين كفيّ، أعود لإمساكها كلّما سلّها بكلّ نوبة سُعال.

ومضت الدقائق تتوالى فارغة إلّا من صوت السعال وهواجسي. وكلّما اهتديت لحديث ما، التصقت الكلمات بحلقي، لا تغادره.

أخيراً، وكأنّما بدافعٍ من الشفقة، أخذ يحدثني. أخبرني أنّه لم يحب أحداً كما أحبّني ولم يرغب بشيء رغبته أن يراني ناجحاً وسعيداً. نبرة الوداع الطافية على صوته عذّبتني. مضى يتحدّث كأنّما على عتبة الفراق الأبديّ. ولكي أصرفه عن استسلامه هذا، ارتجلت موضوعاً لا أعرف كيف ومَضَ لي فجأة: أخبرته أنّي قررت الزواج!

ولكي لا أجعل الأمر يبدو له محض محاولة بائسة منّي لإنعاشه (وهي بالطّبع حقيقة الأمر)، أعطيته اسم فتاة من اللاتي نزحن ببداية

الحرب. وقلت له أن تلكؤي الأيام الماضية إنّما كان لعدم مناسبة أن نتحدّث عن فرائحيّات ولما تمرّ على فقداننا لجدّتي سوى أيّام.

ولكي أسدّ هذه الثغرة أيضاً، أخبرته أن ما دعاني اليوم لمفاتحته بهذه الرغبة أنيّ صادفت الفتاة في الطريق، لدى ذهابي إلى المسجد. وأنها، اليوم بالذّات، أعجبتني أكثر من أيّ وقت مضى، وبِتُّ أخشى أن يسبقني إليها خاطب آخر!

كنت أعرف أنّ هذا سيفرحه، لكنّي لم أكن أتصوّر أن تبلغ سعادته هذا الحد. التفت إليّ مبتسماً وقد عاد لعينيه بريقهما. تمنّى لو كانت جدّتي ما تزال حاضرةً. وأراد النهوض من فوره ليذهب لوالد الفتاة! غير أنيّ أقسمت عليه إلّا أن يرتاح ريثما تتحسّن صحّته، فرضخ على أن يذهب صباحاً.

وطال سهره. لم نتحدّث بعد. لكنّه ظلّ يرمقني بين فينة وأخرى بالنّظرة المؤتلقة ذاتها. إلى أن انسدلت أجفانه على عينيه أخيراً وطفا شخيره على كلّ شيء.

وبقيتُ بعده مُسهّداً. رغم ما شعرت به من ارتياح لنجاحي في إسعاده وبعث الحياة فيه من جديد، إلّا أنيّ من جهة أخرى كنت تعِساً جدّاً. شعرت بأنيّ ارتجلت شأناً هو الأحقّ إطلاقاً بالتريّث والتدقيق. وآلمني إحساسي بأنيّ تصرّفت بعاطفة أكثر من ما يجب. بقيت مُنتصَفاً بين هذين النقيضين إلى أن ابتلعني النّوم.

5

اليوم، لم يوقظني جدّي لنذهب سويّاً لصلاة الفجر. لم أستيقظ إلا السابعة صباحاً. أيقظتني صرخات عمّي وعويل زوجته. مات جدّي. انتصبت مذعوراً وطارت بي قدماي خارج الغرفة، لحوش البيت. لا أعرف وصفاً دقيقاً لحالتي حينها. يمكنني القول أن وقع صرخة عمّي: لقد مات، كان أشبه بسقوط جبل من السماء على كلّ خليّة من جسدي على حدة. أخذ صدغي ينبض كطبل وقلبي يركض في صدري كطريدةٍ ويحفر أذنيّ طنين شرس.

في الحوش، لم أقوَ على الوقوف. جثوت وعلّقت عينيّ في صدر الجبل أمامي، قبل أن يحجبه سدّ كثيف من الدموع. هل بكيت؟! هل انتحبت؟! لا. كان شيئاً أكبر من ذلك، أكبر بكثير. كل جزء من جسدي، كلّ تفصيل في روحي، كلّها كانت تنسحق. تنخلع. تتمزّق. وتمّحي. ثمّ تعود لتكرار الدورة الشرسة ذاتها.

صرخت كما لم أفعل من قبل، وكما لم يفعل أحد. صرخت كما لو لإعطاب حلقي. كان تصرّف من ركلته الأقدار ركلةً جبّارة بقدمها الفولاذيّة تماماً على عموده الفقري.

تداعى النّاس من صراخنا لحوش البيت وغُرَفه. خرج عمّي واحتضنني متمتماً بكلمات ناشجة لم أكن في حالٍ تسمح لي لأتبيّنها. وبلحظةٍ ما، انبلج في وعيي سؤال كالشمس، واضح وصارم وحارق في آن: لماذا يحدث لي كلّ هذا؟!

توقفت عن البكاء فجأة، وأصابعي متشبّثة بشعري كأنّما لاقتلاع هذا السؤال من رأسي، السؤال الّذي أطاح بفكرة الرحمة الّتي كنت لتلك اللحظة أعتقد الله يعاملنا بها، نحن صنيعة يديه.

لماذا يا رب؟! لماذا؟! ماذا فعلتُ لتهشّمني هكذا، لتسحقني؟! لماذا تجرّدني من كلّ شيء بهذا الإصرار، بهذه القسوة؟! بمحض شهور سلبتني كلّ شيء، بمحض شهور. دراستي. مستقبلي. استقراري. جدّتي. شجرتي. واليوم جدّي، آخر ما كنت أستند إليه بهذه الحياة، وآخر ما كان يربطني بها.

ولم أنتبه وأنا أبادل السماء الحنق، لكون قدميّ تسيران بي بعيداً، إلّا حين لاح أمامي قبر جدّتي. وقفت هناك، بطرف المقبرة، مرتدياً منامتي، وقد استحال الوجود في شعوري لمحض قبر. ضيّق. مظلم. وموحش.

وفجأة، سخرت من نفسي. لاحت لي على صفحة هذياني السابق صورة عجزي، هواني، هشاشتي، وضآلتي. وجعل الحزن ينسحب عن صدري أمام قوّة جبّارة من الحقد أخذت تتمدد فيه كغيمة شاسعة داكنة السواد.

ما جدوى حياتي منذ الآن؟! لا جدوى سوى بنذرها للانتقام ممّن تسبّب بإعطابها. سأعود إلى مأرب، لكن إلى الجبهة هذه المرّة. كان قراراً حاسماً تجاوبتْ معه كلّ ذرّة منّي. أضحت الضغينة تتفجّر في دمي غضباً لا يُحَد.

وانفتلتُ عائداً صوب البيت، دونما تمتمات لقبر جدّتي أو تحيّة. لم ترحمني السّماء أبداً، فلماذا أستمرّ بمناجاتها؟! كيف ستتعاطى مع استرحاماتي للآخرين طالما لم تأبه لتلك الّتي رفعتها بشأني أنا؟!

كانت حقيبتي جاهزة، هكذا بمحض الصّدفة. لم أفكّر بإبلاغ عمّي بأنّي سأسافر. لم أهتمّ لما يمكن لغيابي المفاجئ والغامض، سيّما في ظرف كهذا، أن يسببه له من مخاوف وانشغال بال. حتى حين خطر لي ما ينطوي عليه هذا الفعل من دواعي الاستهجان لدى الجميع نحوي أنا الّذي أغادر صبيحة موت جدّي دونما انتظار للسير في جنازته وتأدية مراسيم استقبال المعزّين، كبحت هذا الخاطر بلا اكتراث من يهشّ عن وجهه ذبابة.

كل هذه الاعتبارات بدت لي ترفاً لا يسعني الاضطلاع به. جدّي غدا جثّة هامدة، وليس بمقدوري النّظر في وجهه ميتاً. فلتكن آخر رؤية حظيت بها له تلك الّتي كانت مساء البارحة. التماع عينيه فيها وصفاء صوته وابتسام ملامحه وهو يتهيّأ بكامل شغفه لما كان يفترض أن يحدث هذه اللحظة: أن يذهب ليخطب لي، هي التفاصيل الّتي ترتضيها عيناي كآخر ما حازته من وجوه الأحبّة.

كان لغليان الغضب في دمي صوت لا يعلوه صوت. تقزّم الحزن في قلبي حتى لم أعد أشعر به. استحلتُ لمحض كتلة من ضغينة تضرمها رغبة مسعورة بالانتقام. حملت حقيبتي خلسة وتسحّبت متحاشياً نظر الحاضرين واهتمامهم، إلّى أن خرجت من حوش البيت. ومن هناك اخترعت طريقاً مغايرةً للمعتادة إلى الطريق الإسفلتيّة. وابتدأت السفر.

لم أتصل بمعاذ كما كنّا اتفقنا. لن أنتظر حتى يتمكّن من تأمين مهرّب يعبر بي كمائن الطريق. لا أهتمّ لو اعتقلوني بأيّة نقطة تفتيش. لم يعد لديّ ما أخسره. لم أفكر في شيء حتى وصلت إلى ذمار. كلّ نقاط التفتيش الّتي مررنا بها، نحن الرّكاب، إلى هناك، لم تستوقفنا إلّا لسؤال السائق إلى أين، ثمّ يرشقوننا بنظرة سريعة قبل أن يشيروا للسائق بالعبور. وقد ظللت طوال تلك المسافة أتميّز غضباً وحقداً، وظلّ الطنين يحفر أذنيّ، جمجمتي، ودماغي.

اضطررت للبقاء بمدينة ذمار حتى الثانية عصراً. إلى أن حظيت بإحدى حافلات النقل الجماعيّ، ماضية صوب سيئون. وكون مأرب هي المحطّة قبل النهائيّة في رحلتها، فقد كانت مثاليّةً لأستقلّها. لن تتعامل معها نقاط التفتيش بالصرامة الّتي تجابه بها تلك الحافلات القاصدة مأرب رأساً.

كانت غاصّة بالرّكاب. أغلبهم أزواج وعائلات. القلّة فقط كانوا مثلي، مسافرين فرادى. وإلى أن بلغنا مدينة رداع، لم تستوقفنا سوى نقطة تفتيش واحدة. تبادل أفرادها مع السائق كلمات لم نسمعها، ثمّ أفسحوا للعبور.

وظلّ الهدوء سيّد الموقف وبادٍ على الجميع. غير أنّا ما أن بلغنا نقطة "أبو هاشم"، إلّا وبدأ القلق يطفو على سِحَن الركاب وتصرّفاتهم. طفق الأغلب يتلون الأدعية ويلهجون بالاستغفارات وكأنّما بطقس استدعاءٍ جمعيٍّ لله لينزل بنفسه يخرجهم من هذا المأزق.

زاد من وتيرة هذا القلق أننا حين وصلنا النّقطة، وجدنا أفرادها يسوقون، من إحدى الحافلات المكدّسة على جنبات الطريق، شابّاً بمثل عمري. تتجاذبه أياديهم برعونة وتكيل له أفواههم الشتائم والاتهامات. وكانت أمّه تتضرّعهم أن يتركوا لها ابنها وستعود به إلى صنعاء ولن يفكّرا بالسّفر مرّة أخرى.

كان مشهداً مستفزّاً للغاية، ومخيفاً. أخذت النّساء في الحافلة، وهُن يشهدن صرخات الأمّ الّتي لم تفلح استعطافاتها في شيء، يتشبثن بأكمام مرافقيهن من الرجال بخوف من ينتظره على بُعدِ أمتار مصيراً مماثلاً. وكانوا بدورهم يطمئنونهنّ بغمغمات خفيضة راجفة.

أمّا عنّي، فلم يضف لي هذا المشهد أيّما عاطفة. كان الغلّ الّذي أُكنّه لهؤلاء المتبجّحين بقوّتهم المتعاطين مع النّاس على أنّهم محض أشياء، قد بلغ فيّ بموت جدّي أقصى ما يمكنه بلوغه بقلبٍ آدميّ. ذلك الامتداد اللا نهائيّ للضغينة في دواخلي، انتزع منّي كلّ استعدادات الخوف ودواعيه. حتّى وأنا أتخيّلني تلك اللحظة مكان الشاب المسكين، لم أشعر بالهلع. فقط تحفّز جسدي باستجابة تلقائيّة وفوريّة لخيالي وأنا أنتزع من جرمنديّة أحدهم قنبلة يدويّة، وأسترجع ما تلقّيتها في الجيش من معلومات عن هذا النّوع من القنابل وكيفية التعاطي معها.

بعد قرابة النّصف ساعة من استيقافهم لنا، صعد للحافلة ثلاثة منهم. أحدهم طفل، لكنّه مدجج بعتادٍ كامل. مضى نحوي. بدا عليه

الإجهاد وهو يحاول يرسم على ملامحه الاعتداد بالذات، وكانت بندقيّته قد أمالته لجهة. طلب هويّتي فناولته.

وكنّا لاحظنا، قبل صعودهم بقليل، أن ثمّة ما حدث وأربكهم. شيءٌ ما جعل جميع أفراد النقطة يتحلّقون هنيهة، قبل أن ينفضّوا كل ثلاثة منهم إلى حافلة أو سيّارة من الّتي كانوا أوقفوها. ليبتدئوا، من ثمّ، تفتيشاً سريعاً بدوا فيه أكثر خوفاً من الركاب أنفسهم.

اكتفى الطفل بأن حدّق برهةً في هويّتي، سألني عن اسمي، ثمّ ناولنيها دون أن يفوه، بعد، بكلمة. وكذلك فعل الآخران مع الباقين، قبل أن يتوجه ثلاثتهم للسائق، يأمرونه بسرعة المغادرة. لتتوالى السيارات والحافلات، ينطلقن في دهشة من الركاب المتهامسين عن أسباب هذا الانفراج الطارئ، ويطلقون بالآن ذاته زفير من تمكّن لتوّه من اجتياز فخّ حقيقيّ، وإن بلُغزٍ لا سبيل أبداً لحلّه.

وكان الجميع يعرف أن النجاح في اجتياز هذه النقطة يعني النجاح في الوصول للوجهة. باقي النّقاط الّتي تنتظرنا لا تتعدّى كونها ديكوراً. وعليه، أخلد الأغلب إلى الشاشة الصغيرة المنسدلة من سقف الحافلة، والّتي بدأت تعرض فيلماً سينمائيّاً من إنتاج بوليوود. بينما أسلم البعض أنفسهم لنوم عميق، وكأنّما بعد مجهود بدنيٍّ خارق. وكنتُ من فريق الشاشة.

شابٌ جامعيّ فقير يتعرّف بمدرّجات كليّته على زميلة له تنحدر من أسرة ثريّة. يعجبان ببعضهما. يرقصان قليلاً. يظهر بعدها ابن عمّ الفتاة: شاب ثريّ متطلّع ومغرور، يتكئ منذ مراهقته على ما يشبه

وعداً من عمّه بأن "سانجانا" لن تكون لسواه. هو لا يحبّها، وإنّما يعتبرها سلّماً سيصعد من خلاله لثروة عمّه. ومن هنا تبتدئ المعركة، معركة الخير الّذي يمثله الشاب الفقير مع الشرّ الّذي يجسّده ابن العمّ الشَرِه والّذي لا يُطاق. تراشق كلاميّ. تهديدات. احتدام. ضرب ودماء. الخير مكوّم على الأرض وقد انعجنت ملامحه بالدّم وبالدموع. يغيب عن الوعي في ما يشبه نهاية بائسة للقصّة وللفيلم، وبالطّبع للخير في هذا العالم. لكنّه ما يلبث أن يستيقظ إثر صرخة سنجانا وهي تستنجده مادّةً ذراعها صوب جثّته بينما يجررها ابن عمّها خلفه وقد أمسك بها، بصَلَف المنتصر، من ذراعها الأخرى، منتفشاً بوجوده وسط حلقة من الأجساد المدججة بالعضلات وبالأسلحة. يكون أبوها قد اكتشف، وهو يقلّب بعض الأوراق في مكتبه، أنّ ابن أخيه هذا خائن وأنّه لا يحبّ ابنته وإنّما يحاول اتخاذها جسراً إلى ثروته. ينتصب الخير في هذه اللحظة بجسد متحفّز لتدمير جيش الأشرار. يجندل حرّاس الشرّ تباعاً إلى أن يصل للشر ذاته الّذي لا يجد حيلة لاتّقاء غضب الخير سوى بتقريب نصل خنجره من رقبة سنجانا، مهدداً الخير أنّه فيما لو اقترب خطوة بعد سيغرس النّصل في هذا العنق المستسلم كليّاً لحد الخنجر ولأنفاسه. تكون عينا سنجانا لحظتها ممتلئتين دموعاً. يتفاهم الخير معها بإشارات من عيونهما. تميل برأسها قليلاً، وبالثانية نفسها يقفز الخير ليمسك المسدس الملقى على مقربة منه، ويسدّد منه بحركة بهلوانيّة رصاصة قاتلة، تخترق جبهة الشرّ فترديه. وبذات اللحظة، يصل الأب لمسرح المعركة. يترجّل عن سيّارته. يمضي خطوات ليرى ابن أخيه

غارقاً في دمه. يبتسم. يتطلّع في الخير بامتنان ويعتذر له عن سوء تقديره له في البداية. تكون سنجانا عندئذٍ في أحضان الخير. يُحدَّد موعد للعرس. يرقص الجميع. ينتهي الفيلم.

أغمضت عينيّ متسائلاً عن هذا الإصرار من بوليوود على منح الخير دوماً النّهاية اللائقة، وأيضاً عمّا إذا كان ما يزال ثمّة خير ينتصر غير هذا البوليووديّ؟! واستغربت كيف أن تساؤلات كهذه لم تتخلّل أيّ من تلك الأحاديث الّتي أقحمني فيها شادي طوال الشهور السابقة.

كوّرت قبضتيّ في جيوب سترتي وقد تبدد الفيلم من وعيي ولم يبقَ منه سوى الوجوه المخضّبة بالدماء، وأنشأتُ أعاهد جدّي وجدّتي وشجرتي أن أسفك من دم قتلتهم ما يكفي لإذاقتهم من الألم ما أذاقوه لنا منذ بداية النّكبة.

ولا أدري كيف أمكنني النّوم رغم ما كنت أصطلي بها من مشاعر بالغة القسوة. لا أعرف كم ساعة نمت. صحوتُ والظلام يغلّف كلّ شيء، وعلى البعيد تلوح حفنة من الأضواء عرفت أنّها مدينة مأرب. كان أبو الطفل الّذي أيقظني بشدّ شعري من الخلف، يقدّم لي اعتذاره، حين أخرجت هاتفي وأرسلت لعمّي: سافرت مأرب. وصلت الآن!

مأرب
23 فبراير 2019

سُوار النّبي

ربّما أسوأ جحيم نفسيٍّ يمكن أن يصطلي به المرء، أن يزور سكناً لجرحى حرب. إنّه العرض الأكثر إيضاحاً لقبح الحروب، لمأساويّتها. هناك، وأنت تنظر في الأجساد المجدّعة، المعطوبة، والموجوعة، وهي متراصّة بكثافة، لا يمكنك سوى البصق في وجه الجشع البشريّ وقد أفضى بنا لهذا البؤس، لهذا التشوّه. لا يمكنك سوى البكاء من أعماقك، متحسّراً على حال التوحُّش الّذي غدا يجابه به الإنسان أخاه الإنسان. هل يرى المتسببون بالحروب، مشعلوها، هذه المناظر؟! هل يسمعون كلّ هذا الأنين؟! بماذا يشعرون حينها؟! أثمّة ما يستحقّ أن يُرى في سبيله مشهد كهذا؟! تظلّ تتساءل فحسب، دونما أملٍ بإجابات. لقد كفّ الضمير الإنسانيّ عن تقديم هذا النّوع من الإجابات لحظة أن قُتل هابيل.

COVER BY : NOBY DESIGNS

أروقة
للدراسات والترجمة والنشر